كلمات في القرآن

د. عثمان قدري مكانسي

مقدمة الكتاب

القرآن كتاب العربية الأول، والمنبع الثرُّ الذي يتولد منه جمالها وحسن بيانها.

درّست بعض المختصين في اللغة كلماتٍ في القرآن، معانيَ ومترادفات ،فوقفنا فيها على اشتقاقات وافية وصوَرٍ تجلت في هذه الكلمات وغيرها .

اخترت بعض هذه الكلمات في هذا الكُتَيِّب لعلّ القارئ يعيش في جماليّاتها وبديع أطيافها .

ولعل القارئ يعتمد هذه الطريقة القريبة من أساليب المعاجم مع شيء من الأدب والتصوير اللغوي ، فيصل إلى جواهر بين أيدينا لا يملكها إلّا محب اللغة وعاشقها ....

د: عثمان قدري مكانسي

تفاعل وتفعّل

كثيراً ما أقف معجباً ومتذوقاً – والتذوق نتيجة الإعجاب – كلمات في القرآن الكريم ، لها وقع معنوي ولفظي يأسر الألباب ويتملك العقول . إن شئت قلتَ : هي عطر يتعشق الحواس ، أو قلت : روض يأخذ بالأبصار ، أو قلتَ: موسيقا تحرك العواطف ، أو قلت : هي هذه وتلكُما وأولئك . وحق لها أن تشمل كل ما ذكرت ، فهي كلمات المليك العليم العلاّم . سبحانه .

ونقف في هذه السويعة في حضرة كلمات قوية الجرس سريعة الحركة :

اثّاقلتُم : في قوله تعالى في سورة التوبة الآية الثامنة والثلاثين " يا أيها الذين آمنوا ؛ ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل " وأصلها " تثاقل " على وزن " تفاعل " , أُدْغِمَتْ التّاء فِي الثّاء لِقربِهَا مِنهَا , وَاحتَاجَتْ إِلَى أَلف الْوَصْل لِتَصِل إِلَى النّطق بالسّاكِنِ .

إن الوزن " تفاعل " في الفعل " تثاقل " يفيد المشاركة والتتابع وتوسّط الحركة ، أما " اثّاقل" فيفيد سرعة الهبوط إلى الأرض الدالة َعلى شدّة الخوف من الموت والرغبة في الركون إلى الدنيا، وكأن جاذبية الآرض تشدهم أن يلتصقوا بها ، وكأننا نسمع صوت ارتطام الأَعجاز بالأرض . إنه تعبير تصويري جليّ للنفوس الهالعة الخائفة من القتال ،

المتمسكة بحطام الدنيا !! فكانت صورة الفعل هكذا أقوى في تصوير التصاقهم بالحياة الفانية من الفعل " تثاقل "

وَكَانَتْ تَبُوك – وَدَعَا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم النَّاس إِلَيهَا لحرب الروم – فِي حَرَارَة الْقَيْظ وَطِيب الثمَار وَبَرْد الظلال ، فَاسْتَوْلَى عَلَى النَّاس الْكَسَل ،فَتقَاعَدُوا وَتَثاقَلوا ، فَوَبَّخَهُم اللَّه بِقَوله هذا ، وَعَابَ عَلَيهِمْ الإيثار لِلدّنْيَا عَلَى الآخِرَة . مع أنه لاتُنال راحة اللآخرة إلا بنصَب الدنيا ، وما عِظَم الآخرة على الدنيا إلا كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : " مَا الدُّنيا فِي الآخِرَة إِلآ كَمَا يَجْعَل أَحَدكُمْ أُصْبُعه هَذِهِ فِي الْيَمّ فَلِيَنْظُر بِمَا تَرْجِع ؟ وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ " .

وعَن أَبِي عثْمَان قَالَ : قُلْت يَا أَبَا هُرَيْرَة سَمِعْت مِنْ إِخوَانِي بِالْبَصْرَةِ أنك تَقُول : سَمِعْت نَبِيّ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقول " إِنَّ اللَّه يَجْزي بِالْحَسَنَةِ أَلفَ أَلف ِحَسَنَة " قَالَ أَبُو هُرَيْرَة : بَلْ سَمِعْت رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيهِ وَسَلَّمَ يَقول " إِنَّ اللَّه يَجْزِي بِالْحَسَنَة أَلْفَيْ أَلْف ِحَسَنَة " ثُمَّ تلا هَذِهِ الآية : " فَمَا مَتَاع الْحَيَاة الدنيا فِي الآخرة إلا قَلِيل " فَالدنيا مَا مَضَى مِنهَا وَمَا بَقِيَ مِنْهَا عِند اللَّه قَلِيل . وَقَالَ الثوريّ عَنْ الأعمش فِي الآية " فَمَا مَتَاع الحَيَاة الدنيا فِي الْآخِرَة إلا قَلِيل " هي كَزَادِ الرَّاكِب .

وَقَالَ عَبْد العَزِيز بْن أَبِي حَازِم عَنْ أَبِيهِ لَمَّا حَضَرَتْ عبدَ الْعَزِيز بْن مروَان الْوَفَاة قَالَ : ائتوني بِكَفنِي الَّذِي أُكفّن فِيهِ أَنْظر إِلَيْهِ ، فَلَمَّا وُضِعَ بَيْن يَدَيهِ نَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ : أَمَا لِي مِنْ كَبِير مَا أُخَلِّف مِنْ الدُّنْيَا إلا هذا ؟ ثم ولّى ظَهْره فَبَكَى وهو يَقول أُفّ لَك مِنْ دَار إِنْ كَانَ كَثِيرك لَقَلِيل ، وَإِنْ كَانَ طويلُك لَقَصِير وَإِنْ كنا منكِ لفي غرور .

ادّاركوا : في قوله تعالى في سورة الأعراف الآية الثامنة والثلاثين " .. كلما دخلت أمة لعنَتْ أختها ، حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أُخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلّونا ، فآتهم عذاباً ضِعفاً من النار ، قال : لكل ضِعفٌ ، ولكن لا تعلمون " فالأولون هم المتبوعون ، والآخِرون هم التابعون ، ودخل المتبوعون _ السادة والقادة – النارَأوّلاً لأنهم أشد جُرماً وتبعهم جنودهم وأُجراؤهم الذين كانوا يُطيعونهم ويأتمرون بأمرهم بعدهم ، وعذاب السادة أشد لقوله تعالى " وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالهمْ وأثقالاً مَعَ أَثْقَالهمْ " وَقَوْله " وَمِنْ أَوْزَار الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْم " . والأصل " تداركوا " أنْ تبَعَ بعضهم بعضاً " أما " ادّاركوا " فقد أعطت مع التتابع السرعة في الوصول وكأن بعضهم يزحم بعضاً ، وهو تصوير بديع لسرعة دخولهم النار وانحشارهم فيها – والعياذ بالله من هذا المصير المخيف – فما إن يستقرون في العذاب حتى تظهر الشحناء والبغضاء ، وتتعالى الاتهامات وتشتد العداوة وترتفع الأصوات ويجأر الضعفاء بالشكوى والكبراء بالرد ، فإذا هم أعداء متخاصمون أشد الخصام ، متساوون في العذاب . ولا ننس أن االفعل يشير – كذلك – إلى دركات جهنم تُؤصد عليهم فيُحبسون فيها .

ادّارك : في قوله تعالى في سورة النمل الآية السادسة والستين " بل ادّارك علمُهم في الآخرة ، بل هم في شك منها ، بل هم منها عَمون" وأصل الفعل " تدارك " ثم حذفت التاء وقلبت التاء دال وأدغمت في أختها . والمعنى أنهم لم يدركوا الحقيقة إلا في الآخرة حين عاينوها ، فلم ينفعهم علمهم هذا إذ الآخرة دار حساب ، وقد كانوا في الدنيا مكذبين . وهذا الإسراع في معرفة الحقيقة لا يدل على رغبة في أن يعلموه إلا أنه أمر اضطروا إليه اضطراراً حين اصطدموا بالواقع المرير الذي وقعوا فيه فجأة ، فرأوا أنفسهم يعاينون ما كذّبوه في الدنيا ، ولا فكاك عنه أبداً .. وقيل: إن ادّارك هنا بمعنى ضلوا وغاب عنهم في الدنيا علم الآخرة فأنكروها . يدل على ذلك مجيء كلمة " عمون " بعدها .. وإنكار

الكافرين حقيقة اليوم الآخر رد انفعالي سريع يدل على عدم التفكير والروية في اتخاذ القرار ، إنهم – ابتداء– يرفضون ترك آلهتهم ، فيأتي هذا الوزن للفعل يدل على عدم التفكير المنطقي وعلى الجنوح إلى الأهواء والرغبات .

ادّارأتم : في قوله تعالى في سورة البقرة الآية الثانية والسبعين " وإذ قتلتم نفساً ، فادّرأتم فيها ، والله مخرجٌ ما كنتم تكتمون " فقد قتل من بني إسرائيل صبي ، فاتّهَمَ بعضهم بعضاً وتخاصموا . والدريئة ما يختبئ الإنسان وراءها مدافعاً عن نفسه ومهاجماً غيره . والأصل" تدارأتم ، تفاعلتم " لكن حين يتقاذف الناس الاتهامات تقلب التاء دالاً وتدغم بأختها ،وتحتاج همزةَ وصل فتصير " ادّارأتم ، ويحاول من يُشار إليه بالبنان أن ينفي عنه التهمة بالإسراع باتهام غيره دون دليل ومنازعته . فأَصِخِ السمعَ ، وارْنُ ببصرك إليهم وهم يتراشقون التهم دون جزافاً ،همّ كل منهم أن يسلم برأسه وينجو من العقاب . كما أن الدرء : العِوَج ، وهو يوحي بأن الظلم أعوج ، وما يسلكه إلا المبطلون ، ولا بد من ظهور الحق الذي يفضح الظالمين .

ومما يوضح معنى الاختلاف والمنازعة في الفعل " ادّارأ " ما رواه السائب , قَالَ : جَاءَنِي عُثمَان وَزُهَيْر ابْنَا أُمَيَّة , فَاسْتَأْذنا لِي عَلَى رَسول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ , فَقَالَ رَسول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَنَا أَعْلَم بِهِ مِنْكُمَا , أَلَمْ تَكُنْ شَرِيكِي فِي الْجَاهِلِيَّة ؟ " قُلْت : بلى بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي , فَنِعْمَ الشَّرِيك كُنْت لا تُمَارِي ولا تُدَارِي " يَعْنِي بِقَوْلِهِ : لا تُدَارِي – بتسهيل الهمزة – : لا تُخَالِف رَفِيقك وشَرِيكك وَلا تُنَازعهُ وَلا تُشَارِهِ .

كما أن من معاني " المدارأة " المدافعة . فقد قال تعالى :" ويدرأ عنها العذابَ أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لَمِن الكاذبين ، والخامسةَ أن غضبَ الله عليها إنْ كان من الصادقين " والمعنى : ويدفع عنها العذابَ ...

اطّيّرنا : في سورة النمل ، الآية السابعة والأربعين " قالوا اطّيّرنا بك وبمن معك ، قال : طائركم عند الله ، بل أنتم قوم تُفتنون " وأصلها " تطيّر " على وزن " تفعّل " فقلبت التاء طاء وأُدغمت في أختها ، وزيدت همزة الوصل .. وتفيد " اطّيّر" الشؤم بانفعال وسرعة يدلان على النزق والجهل ، ، إن من يتطير مريض النفس قليل العقل أصلاً ، فكيف إذا اطيّر " إنه يكون أكثر سفهاً وطيشاً . ولا شيْء أَضَرّ بِالرَّأْيِ ولا أَفْسَد لِلتَّدْبِير مِنْ اِعْتِقَاد الطِّيَرَة . وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ خُوَار بَقَرَة أَوْ نَعِيق غُرَاب يَرُدّ قَضَاء , أَوْ يَدْفَع مَقْدُورًا فَقَدْ جَهِلَ . وَقَالَ الشَّاعِر :

طِيرَة الدَّهْرلا تَرُدّ قَضَاء فَاعْذُرِ الدَّهْر لا تَشُبْهُ بلَوم

أَيّ يَوْم يَخُصّهُ بِسُعُودٍ وَالْمَنَايَا يَنْزِلْنَ فِي كُلّ يَوْم

لَيْسَ يَوْم إلا وَفِيهِ سُعُود وَنُحُوس تَجْرِي لِقَوْمٍ فقَوْم

وَقَدْ كَانَتْ الْعَرَب أَكْثَر النَّاس طِيَرَة , وَكَانَتْ إِذَا أَرَادَتْ سَفَرًا نَفّرَتْ طَائِرًا , فَإِذَا طَارَ يَمْنَة سَارَتْ وَتَيَمَّنَتْ , وَإِنْ طَارَ شِمَالاً رَجَعَتْ وَتَشَاءَمَتْ , فَنَهَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ : (أَقِرُّوا الطَّيْر عَلَى وَكْنَاتهَا) والفرْق بَيْن الْفَأْل وَالطِّيَرَة أَنَّ الْفَأْل إِنَّمَا هُوَ مِنْ طَرِيق حُسْن الظَّنّ بِاَللَّهِ , وَالطِّيَرَة إِنَّمَا هِيَ مِنْ طَرِيق الاتكال عَلَى شيء سِوَاهُ , وَقَالَ الآصْمَعِيّ : سَأَلْت ابن عَون عن الْفَأْل فقال : هُوَ أَن يَكُون مَرِيضًا فَيَسْمَع يَا سَالِم , أَوْ يَكُون بَاغِيًا فَيَسْمَع يَا وَاجد ؛ وَفِي صَحِيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَالَ : سَمِعْت النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقول : (لا طِيَرَة ، وَخَيْرهَا الْفَأْل) , قِيلَ : يَا رَسُول اللَّه وَمَا الْفَأْل ؟ قَالَ : (الْكَلِمَة الصَّالِحَة يَسْمَعهَا أَحَدكُمْ) , و رُوِيَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء رَضِيَ اللَّه عَنْهُ أَنَّهُ

قَالَ : إِنَّمَا الْعِلْم بِالتَّعَلُّمِ وَالْحِلْم بِالتَّحَلُّمِ , وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخير يُعْطَهُ , وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرّ يُوقَهُ , وثلاثة لاينالون الدرجات العلا : مَنْ تَكَهَّنَ أَوْ اِسْتَقْسَمَ أَوْ رَجَعَ مِنْ سفر مِنْ طِيَرَة .

ازّيّنَتْ : في قوله تعالى في سورة يونس الآية الرابعة والعشرين " حتى إذا أخذت الأرض زخرفَها وازّيّنّتْ وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً " والفعل" ازّيّن " من " تزيّن " حيث قلبت التاء زيناً وأدغمت في أختها واحتاج الفعل همزة وصل . وفي معنى ازّينت كثرة الزينة ووفرتها من غلة وزرع وخضرة وأزهار وخير كثيريملأ الأرض فيعجب أهلها ثم يذهب سريعاً كما جاء حين يريد الله تعالى ذلك . واقتران الزينة بالزخرف – وهو اللذي لا يدوم – دليل على تفاهتها ، إذ كل شيء مهما كثر وغلا إذا لم يستمر زخرفٌ فانٍ . وقد جاء في الحديث" " يُؤْتَى بِأَنْعَم أَهْل الدُّنْيَا فَيُغْمَس فِي النَّار غَمْسَة فَيُقَال لَهُ هَلْ رَأَيْت خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِك نَعِيم قَطُّ ؟ فَيَقُول لا وَيُؤْتَى بِأَشَدّ النَّاس عَذَابًا فِي الدُّنْيَا فَيُغْمَس فِي النَّعِيم غَمْسَة ثُمَّ يُقَال لَهُ هَلْ رَأَيْت بُؤْسًا قَطُّ ؟ فَيَقُول لا " إن النعيم الدائم هو الحيوان لو كنا نعلم :

فما من عاقل يرضى زوالاً ببـاقية ! فذاك من المحال

ومن يشري خلوداً من فناء لعمر الله ، ذاك من الخبال

يهِدّي : في سورة يونس الآية الخامسة والثلاثين " .... أفَمَنْ يَهدي إلى الحقِّ أحقّ أن يُتّبع أم من لا يَهِدّي إلا أن يُهدى ، فما لكم؟ كيف تحكمون؟! " أصلها : يهتدي " يفتعل " ثم قلبت التاء دالاً وأدغمت في إختها ، وحركت الهاء بالكسر تبعاً لحركة الداء المكسورة المشددة .

توحي إليّ هذه الكلمة " يَهِدّي" بانفلات كابح العربة في طريق نازل تكاد تهوي بمن تحمله في أعماق الوادي ، أو بالناقة التي تسير على غير هدى بعد أن فقدت صاحبها ، أو بمن يتعاطى التجارة وهو لا يحسنها فتكاد حيتان السوق تبتلعه ... يجمع هذه الصور الثلاث انفلات راعن وسفه مدمر ..... وصور أخرى لعربة متينة يقودها سائق ماهر، أو ناقة تسير في القافلة إلى الهدف المنشود آمنة ، أو تاجر صدوق عالم بأصول التجارة .. أمن وأمان وهدى ورشاد .

لا شك أن الله تعالى الذي خلق الكون فأبدعه ، وخلق الإنسان وشرع له طريق النجاة وسبيل السعادة أحق أن نلزم نهجه فهو الخالق العالم ببواطن الأمور وظواهرها فمن أسلم قياده له سبحانه نجا وأفلح ، ومن اتبع هواه ضاع وتبّر

اشهدْ لِذات الله بالتوحيد .. واترك مقالة فاسق زنديق

واعلم بأن الكون من صنع الذي إن قال كن فالقول في التحقيق

ولمن يؤوب الحر إن حاقت به محن الحياة فعاش في تضييق

ألمثله يأوي ترى أم يرتجي ربّ البرية خالصَ التوفيق

فمن العبيد ترى صنوف مذلة ومن العزيز كرامة الصدّيق

البشرى

فـي لسان العرب : " من أحب القرآنَ فَلْيَبْشَر: أي فليفرحْ ولْيُسَرّ . أراد أن محبة القرآن دليل على محْض الإيمان " " وبشّرَه : فرّحه " . وفي معجم الصحاح " البشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير ، وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة كقوله تعالى : فبشرهم بعذاب أليم ." وفي القاموس المحيط " البُشرى ما يناله المبَشِّر " .

- لا يُذكر البشير – عادة – إلا ويذكر في المقابل النذير كما في قوله تعالى في سورة الفرقان الآية السادسة والخمسين مخاطباً نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام " وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً " وفي سورة الإسراء الآية الخامسة بعد المئة نجدها باللفظ نفسه.

- بشر الله تعالى المؤمنين في القرآن الكريم بإيمانهم وتقواهم ، وجعل رضاه سبحانه ، والجنة جزاءهم ، وصرح بوجود الأنهار والرزق الوافر المتعدد والزوجات الطاهرات مع الخلود في هذه الجنان ، فقال – سبحانه – في الآية الخامسة والعشرين من سورة البقرة " وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل ، وأُتوا به متشابهاً ، ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون. " ، وهذه البشرى تكررت في القرآن الكريم عشرات المرات .

- ونجد من أنواع المؤمنين الذين نالتهم البشرى في القرآن الكريم :

أ- الصابرين على السراء والضراء ،منحهم الرحمة والبركات وختم لهم بالهداية ، فقال في الآية الخامسة والخمسين بعد المئة وما بعدها " .... وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون " .

ب- المخبتين : وهم المطمئنون إلى الله المتواضعون له فوصفهم بأنهم يهابونه ويحبونه ، ويصبرون على ما ابتلاهم به ، ويقيمون الصلاة ويكثرون الإنفاق من مال الله الذي في

أيديهم . فقال في سورة الحج الآيتين الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين " وبشر المخبتين الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبُهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون " .

ج- المحسنين : وهم أهل التقوى الذين يعبدون الله كأنهم يرونه فقال في سورة الحج ، الآية السادسة والثلاثين :" ... وبشر المحسنين " وقال في الأحقاف الآية الثانية عشرة " ... وبشرى للمحسنين "كما صرح المولى تعالى في آيات كثيرة أنه مع المحسنين ، وأنه يجزي المحسنين ، وأن رحمته للمحسنين .

د- عبادَ الله وهم الواعون لما يُتلى عليهم ، يفهمونه ويعملون به ، فكانوا مهتدين لأنهم أصحاب العقول والأفهام ، يقول تعالى في سورة الزمر الآية السابعة عشرة : " فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هو أولو الألباب " . ويقول الله تعالى في أول سورة " يس " مادحاً عباده الذين يخشونه بالغيب فيعملون بما أمر مبشراً إياهم بالغفران الواسع والأجر العظيم " إنما تنذر من التبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ، فبشره بمغفرة وأجر كريم " .

هـ- المجاهدين : وهم الذين باعوا أنفسهم لله تعلى فجاهدوا في سبيله ، وباعوا الدنيا بالآخرة ففازوا بالجنة ورضاء الله تعالى . يقول الله سبحانه في الآية الحادية عشرة والمئة من سورة التوبة : " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيَقتُلون ، ويُقتَلون . وعداً عليه في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟! فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم " .

و- الدعاة إلى الله : " وهم الذين جهروا بالدعوة ، وأعلنوها ، وأعلنوا العبودية لله وحده ، وكانوا قدوة في قولهم وعملهم ، هؤلاء لا يخافون حين يخاف الناس ، ولا يحزنون حين يحزن الناس ، فالجنة جزاؤهم ، والله تعالى وليّهم ، والملائكة تبشرهم . كل هذا لأنهم آمنوا بالله رباً واحداً وأعلنوا دعوتهم على الملأ ، واستقاموا في حياتهم ، ودعوا إلى الله فكانوا نبراساً ونوراً ، يقول الله تعالى في الآية الثلاثين من سورة فصلت وما بعدها " إن الذين قالوا : ربُنا الله ، ثم

استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ، ولكم فيها ما تدّعون ، نزلاً من غفور رحيم ، ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً ، وقال : إنني من المسلمين .. " .

أما الذين غضب الله تعالى عليهم لكفرهم وفسادهم ، فهؤلاء ينذرهم بالويل والثبور والعذاب الشديد ، ويستعمل القرآن كلمة البشرى مكان الإنذار لما فيها – حين تخرج عن معناها الأصلي – من تهكم وسخرية وتوبيخ . وهؤلاء الذين بشرهم القرآن بالعذاب أنواع ، منهم :

الكفار : يقول تعالى في الآية الثالثة من سورة التوبة " وبشر الذين كفروا بعذاب أليم " ويقول في سورة الانشقاق في الآية الثانية والعشرين وما بعدها " بل الذين كفروا يُكَذّبون ، والله أعلم بما يُوعون ، فبشرهم بعذاب أليم " وتصور معي البشرى بما يكره الإنسان ويخاف . إنها لسخرية ما بعدها سخرية ، واحتقار ما وراءه احتقار . ويندرج تحت هذا المسمّى أهل الكتاب ممن كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد بعثته ، ومن الذين أشركوا مع الله آلهاً غيره ، ومن الذين كفروا به وعبدوا آلهة أخرى ، أو أنكروا وجود الخالق ، أو ادّعَوُا الألوهية .

المنافقون : هؤلاء دخل الإيمان قلوبهم ثم خرج " ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا " فطبع الله على قلوبهم . وهؤلاء في الدرك الأسفل من النار لغضب الله الشديد عليهم ، اقرأ معي قوله تعالى في الآية السابعة والثلاثين بعد المئة من سورة النساء يصور حالهم وتذبذبهم بين الإيمان والكفر ، ثم خلودهم إلى الكفر والبعد عن الهداية " إن الذين آمنوا ، ثم كفروا ، ثم آمنوا ، ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ، ولا ليهديَهم سبيلاً " ثم يقرر في الآية التالية أنهم أصحاب النار وسيذوقون فيها العذاب الأليم " بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً " لماذا ؟ وما سبب ذلك؟! إنهم انحازوا إلى الكفار أمثالهم ، ورغبوا عن الله والمؤمنين ظانّين أن العزة عند أولئك الكفار ، فخابوا وخسروا ، يقول سبحانه وتعالى " الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة؟! فإن العزة لله جميعاً "

المستكبر : قد تتوقع خيراً من كثير من المجرمين والمفسدين أما المستكبر فلا خير فيه لأنه يرى نفسه فوق الآخرين ، بل يجد الآخرين خدماً وخَولاً ، وجودهم لوجوده فقط وحياتهم مسخرة لخدمته . هذا الصنف لا يرى إلا نفسه ، ولا يسمع سوى ما يهواه . أما كلمة الحق فبعيدة عنه ، بل الحق في نظره ما يريده ويهواه ... فهل تراه بعد هذا يستجيب للدعوة أو يعطيها ظهره ويسد أذنيه ؟! اقرأ معي سمات المستكبر في الآية السابعة من سورة لقمان تصوره صورة واضحة تبين عجرفته وصدوده " وإذا تُتْلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً ، فبشّره بعذاب أليم " ألا يستحق هذا المستكبر هذه الصفعة القوية والتهديد القوي ؟ كما نجد مثاله أيضاً في الآية الثامنة من سورة الجاثية وقد زاد لؤمه في الصفتين الجديدتين فهو أفاك وأثيم " ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تُتْلى عليه ، ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشَره بعذاب أليم " فهو يسمع كلمة الحق ويتجاهلها سخرية وترفعاً وكبرياء، فكانت العقوبة سخرية به واستهزاء بما يناسب جرمه .

أما الذين يأكلون الدنيا بالدين : فهؤلاء لصوص يدّعون الإيمان بالله ويجمعون باسمه المال ويكنزونه ،ويحاربون الدين في الوقت نفسه فلا يصرفون المال في وجوهه الصحيحة بل يسلبونه بكل طرق الباطل والدجل " يا أيها الذين آمنوا ؛ إن كثيراً من الأحبار والرهبان لَيأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ....." هؤلاء يعذبهم الله بالمال نفسه ، يحسبونه نعمة فإذا هو عليهم نقمة حيث يصبح ناراً تكوى بها أجسادهم وجباههم التي رفعوها تفاخراً على العباد بالغنى ، وجنوبهم التي مالوا بها عن الفقير حين سألهم فتغافلوا عنه ، ثم أدارو للفقير ظهورهم التي تَكوى يوم القيامة بالكنز نفسه والعياذ بالله " ... والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يُحمى عليها في نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون " الآية الرابعة عشرة من سورة التوبة . فالعقوبة من جنس العمل . ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون .

والنوع الآخير مما نذكر قتلة الأنبياء والدعاة : وهؤلاء المجرمون يريدون بقتل الأنبياء والدعاة تجفيف منابع الخير والدعوة ، ليغرق الناس في جاهلية جهلاء ويسعون لوأد النور والضياء ونشر الظلم والفساد .. " إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون باقسط من الناس فبشرهم بعذاب اليم " . آل عمران ، الآية الحادية والعشرون ... إنهم موجودون في كل زمان ومكان ، وتراهم منبثين في الشوارع والنوادي ويدخلون البيوت والمخادع ويبثون سمومهم بكل أطياف الفكر المنحرف والثقافة المنحطة والأهواء البهيمية ، ويدسون السم في الدسم والردّة في العلم المادّي " إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يُحشرون " سورة الأنفال ، الآية ست وثلاثون . وهذا من فضل الله علينا معشر المسلمين أن الأعداء يمكرون ، ولكن الله تعالى يبطل مكرهم " .

ومن الجدير بالذكر أن الملائكة الكرام بشرى للمسلمين :

إنهم يبشرون زكريا بولده يحيى " يا زكريا ؛ إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً " .

ويبشرون إبراهيم بولده الحليم إسماعيل " ربّ هب لي من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم " الآيتان الأولى والثانية بعد المئة من سورة الصافات ، ويبشرونه بولده العليم إسحاق من السورة نفسها الآية الثانية عشرة بعد المئة " وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين " ونجد وصف العلم في سورة الذاريات " قالوا لا تخف ، وبشروه بغلام عليم "

ويبشرون سارة بابنها إسحاق وحفيدها يعقوب في الآية الواحدة والسبعين من سورة هود " وامرأته قائمة ، فبشرناها بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب " .

كما نجد أثر الملائكة الإيجابي في معركة بدر حين قاتلت مع المسلمين أعداءهم بأمر الله ، وقتالهم بشرى بالنصر عظيمة " إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان .." .

والملائكة نفسها شؤم على الكافرين :

فالكفار يزعمون أنهم لا يؤمنون إلا إذا رأوا ربهم أو رأوا الملائكة ، فيخيب الله تعالى زعمهم حين يخبرهم أنهم لن يروا الملائكة إلا حين ينتهي الأمر ويكونون من أصحاب النار " وقال الذين لا يرجون لقاءنا : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ؛ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراُ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل ، فجعلناه هباء منثوراً "

وكانت العرب تكره البنت وترغب بالصبي ، فقد كانوا يحدونها عبئاً ، ويرون نصرها بكاء وعويلاً وصراخاً ، أما الفتى فيحمل السلاح ويقاتل ، لقد كان المجتمع ذكورياً أدى بهم إلى وأد البنت في كثير من الأحيان ، وقد وثق القرآن وأدهم بقوله تعالى :" وإذا الموءودة سُئلتْ : بأي ذنب قتلت ؟ "كما نعى على هؤلاء أنهم يجعلون لله – سبحانه – البنات (الملائكة) على زعمهم ويرتضون لأنفسهم الذكور " ويجعلون لله البنات — سبحانه– ولهم ما يشتهون ، وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودّاً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشّر به ، أيمسكه على هُون أم يدسّه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون " فكيف يرتضون لربهم البنات ، ويطلبون لأنفسهم الذكور ؟! " وإذا بُشّر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم !! "

.

بشرى الإله على التقوى منازل لا يرقى إليها سوى المحفوف بالنعَم

من بات يسعى إلى مرضاة خالقه ببذل معروفه بالفعل والكلِم

يُقال أبشِرْ بجنات ومغفرة أعظِم بعفو مليك الكون من غنُم

يا رب إني ضعيف فاحْبُني مدداً وسدد الخطوَ في الناجين بالكرم

هل أتاك ؟

كلما قرأت الآيات التي تتصدرها هذا الكلمة مسبوقة بالاستفهام " هل أتاك " عشت التحدي القرآني العجيب في سَوق الخبر الذي ينبئ عن الغيب الذي يحمله إلى القارئ أو السامع في حقيقته وصدقه ، واقتطاعِه من الماضي السحيق صورة تثبُت أمام العين حركة ولوناً وحَدثاً ، وتجاويفَ الأذن صوتاً وجلبة . وفي القلب انطباعاً وثباتاً ، والعقلِ تفكيراً وتحليلاً ودروساً وعِبَراً . فإذا بهذا النبأ الغيبي حقيقة واقعة في حواس الإنسان يعيشه وجداناً وعواطف ، وتأملاً وتدبراً . " هل أتاك " تنقل الماضي المنسيّ حاضراً حيّاً تتلمسه لوحةً متحركة تعرض الحدث نابضاً بالحياة ، فتتفاعل معه كأنك أحد عناصره . وهذا الشعور لحظة تربوية إيجابية لا تنمحي من الذاكرة . وهذا ما يمتاز به النص القرآني الرائع .

وردت هذه الكلمة " هل أتاك " ست مرات في القرآن ، وهي أسلوب إنشائي استفهامي سبقته " هل " الاستفهامية التي لا تحتاج جواباً ، فما بعدها الجواب الشافي بكل أبعاده . إنه أسلوب لجذب الانتباه ، فتترك كل ما في يديك لتخلُص للحدث ، وتندمج فيه .

وترى بعد " هل أتاك "كلمة " حديث " خمس مرات وهي بمعنى الحدث والقصة أو قل مايراد من الحديث نفسه ، فتتهيأ لتسمع وترى وتتابع . أما في المرة السادسة فقد ذُكر كلمة " نبأ " ففي النبإ فتنة واختبار لدواوود عليه السلام كما سيمر .

وبعد كلمة الحديث – وهي كلمة عامة – يُذكرالهدف الذي سيق له " هل أتك حديث .. " موسى وضيف إبراهيم ، والجنود ، ، والغاشية ، والخصم.. ثم تبدأ القصة ...

تلا أربعاً منها كلمةُ " إذ " وهي ظرف يختص بنقل الماضي إليك ، فيضعه أمامك من بدايته ، ثم يبدأ بالقصة تتوالى بدقائقها فيلماً سينمائياً يقتنص اهتمامك ، فتتابعه بشغف ورغبة . و" إذ " نقلة سريعة للموقف ، حيث يبدأ فوراً بزخم صوره الحية ...

في سورة طه يقول تعالى " هل أتاك حديث موسى ؟ " فتلتفت نحو مصدر السؤال لترى الجواب يتحدر بسلاسة قائلاً : " وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نار فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً ، لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ..... " من الآية التاسعة إلى غاية الآية الثامنة والتسعين يفصل القول منذ أن شد موسى عليه السلام الرحال من مدين إلى مصر مع أسرته فرأى النور عند الشجرة المباركة وكلمه ربه ، فجعله من المرسلين ، إلى إشراك أخيه هارون في الرسالة مع التفاتة إلى فضل الله تعالى عليه منذ أن أرضعته أمه ، ثم ألقته في النهر ، وتبعته أخته تدل أهل فرعون على الأم ، فيعود إليها بفضل الله تعالى . ثم نجد الأخوين يحاجّان فرعون ويحاورانه ، ونراهما يعظان السحرة قبل المباراة التي انتهت بإيمان السحرة . ثم انتقام فرعون المتأله من المؤمنين الجدد الذين ثبتوا على الإيمان بالله رغم التعذيب ثم الصلب والقتل . كما نرى المؤمنين بقيادة نبيهم موسى يجتازون البحر ، ثم يتبعهم فرعون فيغرق فيه ، وتنطوي صفحة الظلم فيرى اليهود أنفسهم أحراراً ، إلا أنهم سرعان ما ينتكسون فيطلبون إلهاً حين يرون بعض المشركين يسجدون للأصنام ، ويمضي الحدث مصوراً اتخاذ اليهود عجلَ السامري إلهاً على الرغم من وجود هارون بينهم — وقد استضعفوه – ، ثم تكون محاورة بين موسى والسامري تنتهي بحرق الإله المزيف وعقوبة السامري المنحرف لنصل إلى النهاية الأصيلة في عقيدة المسلم :

" إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ، وسع كل شيء علماً " .

أما في سورة " النازعات " فإننا نعيش قصة موسى نفسَها مختصرة في دعوة موسى فرعونَ إلى التوحيد وعبادة الله الواحد الأحد ،" هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى : اذهب إلى فرعون ، إنه طغى " فيأبى المجرم تلك الحقيقة ويدّعي الألوهية ، ويصرح بها " فقال : أنا ربكم الأعلى " فيأخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وينتهي المشهد بالقاعدة الأصيلة " فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى " فهل من معتبر؟! .

فإذا وقفنا بتأنّ في حضرة سورة " الذاريات " وجدنا قصة سيدنا إبراهيم حين استقبل الملائكة الكرام " هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه ... " وعرّج على قصص

موسى وفرعون ، وقوم هود وقوم صالح وقوم نوح باختصار شديد ، وبيّن نهاية الكفار المدبرين عن الإيمان ، ثم أمرنا بالفرار إلى الله تعالى وتوحيده سبحانه ، فهذا الأصل الذي على المؤمن أن يسعى إليه " ففروا إلى الله ، إني لكم منه نذير مبين ، ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين "

أفر إليك منك ، وأين إلا إليك يفر منك المستجير

أما في سورة البروج فإننا لا نجد " إذ " ونجد الهدف : فرعون وثمود ، وسبب حذف " إذ " وهي – كما قلنا سابقاً – استحضار الصورة — ولا حاجة لاستحضارها فقد ذكرت بالتفصيل في أول السورة " .... قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ..... " فكان المعنى واضحاً والصورة جلية

وكذلك رأينا في سورة الغاشية ما رأيناه في سورة البروج من الاستغناء عن " إذ " لأن الصورة جاءت مسرعة تتجاوز التهيئة ، وانفتحت تصور حياة الكفار في نار جهنم والعياذ بالله ، فتخلع القلوب وتهز الصدور ... كما أن " إذ " تستجلب الماضي ، وتصويرُ حياة الكفار في نار جهنم سيأتي في المستقبل ، ويعبر عن المستقبل كلمةُ " يوم " يوم ينظر المرء ما قدمت يداه " يوم نقول لجهنم هل امتلأتِ ، وتقول هل من مزيد " يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم " .

ثم نجد قوله تعالى " هل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب ....." فاحتلت كلمة " نبأ " مكان " حديث " فالأمر خطير ، إنه اختبارٌ لجَلَد نبي من أنبياء الله مشهور بالإنابة والتوبة وكثرة الذكر ، تسبح الجبال والطير معه ، تكررت في قصته " إذ " مرتين " إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داوود " لقد كان دخولهم فجأة دون إذن فخافهم ، فأخبروه بسبب دخولهم ، ولم يعرف أنهم ملائكة إلا حين اختفوا فجأة كما ظهروا فجأة . وهنا نعيش الامتحان في القضاء الذي ينبغي أن يستمع فيه القاضي لحجة الطرفين ، لا أن يحكم بمجرد أنه سمع اتهام الأول فهُيّئ له أنه

مظلوم تجب مساعدته ، فأسرع يحكم له ، ثم أحس بخطئه الفادح فخر ساجداً يستغفر الله ويتوب إليه .

بقي أن نقول : رأينا في سورة الدهر قوله تعالى " هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً " فكان هذا التساؤل بمعنى (قد أتى على الإنسان حين من الدهر ...) وهي معنى آخر غير معنى " هل أتاك " يصب في التقرير والتأكيد ... نسأل الله أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا .. إنه ضياء النفوس وكنز الإيمان ، وقوت القلوب .

يسألونك

وصف أمير المؤمنين عمرُ بن الخطاب عبدَ الله بن عباسٍ رضي الله عنهم جميعاً بكلمة ذهبت في الأجيال مثلاً ، قال : " إنه فتى الكهول ، له لسان سؤول ، وقلب عقول " . ولم يبلغ ابن عباس مرتبة الصدارة في العلم لولا السؤال .

والسؤال له بالإضافة إلى الاستعلام والاستفهام فوائد كثيرة نذكر بعضها – من القرآن الكريم – على سبيل المثال لا الحصر

التأكد من المعلومة : فهذا يوسف عليه السلام حين أرسل إليه الملك ساقيه ليخرج من السجن وقد عفا الملك عنه ، رغب يوسف عليه السلام أن يخرج بريئاً من التهمة الشنيعة ، ليكون قدوة في الطهر والشرف ، أما العفو فللمذنبين ، ويوسف بريء مما اتهموه به ، فرد المراسل قائلاً له : " ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ؟ إن ربي بكيدهنّ عليم " قبل أن تظهر براءته " قال الملك ائتوني به " وبعد البراءه ارتفعت مكانته إذ " .. قال الملك ائتوني به استخلصه لنفسي " وحين كلمه عظُم في عينه فـ " قال له : إنك اليوم لدينا مكين أمين " .

طرح الشك : لقد أذن الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم أن يسأل الأنبياء قبله حين التقاهم في مسجد بيت المقدس وصلى بهم قبل أن يصعد للسماء ليطمئن قلبه – إن خالجه شك ، وحاشاه أن يشك ، فهو صاحب الدعوة – ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم المؤمنين وأكثرهم يقيناً بالله ، ولكن السؤال مشروع لكل من يشك في أمر ما " فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك ..."

وفي تفسير قوله تعالى في سورة الزخرف الآية الخامسة والأربعين " واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون ؟ " يقول القرطبي رحمه الله تعالى فيما يرويه عن ابن عباس رضي الله عنهما : لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْمَسْجِد الْحَرَام إِلَى الْمَسجِد الأقصى – وَهُوَ مَسْجِد بَيْت الْمَقْدِس – بَعَثَ اللَّه لَهُ آدَم والمرسلين جميعاً , وَجِبْرِيل مَعَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ;فأذّن جِبْرِيل صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ أَقَامَ الصلاة , ثُمَّ قَالَ : يَا

مُحَمَّد تَقَدَّمْ فَصَلِّ بِهِمْ ; فَلَمَّا فَرَغَ رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ; قَالَ لَهُ جِبْرِيل صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : [سَلْ يَا مُحَمَّد مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلك مِنْ رُسُلنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُون الرَّحْمَن آلِهَة يُعْبَدُونَ] . فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : [لا أَسْأَل قَدْ اِكْتَفَيْت] . قَالَ اِبْن عَبَّاس : وَكَانُوا سَبْعِينَ نَبِيًّا مِنْهُمْ إِبْرَاهِيم وَمُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمْ السلام ; فَلَمْ يَسْأَلهُمْ لأنه كَانَ أَعْلَم بِاَللَّهِ مِنْهُمْ .

تقوية الموقف بالدليل : كان يعقوب عليه السلام – لِما رأى من أبنائه الكذب – لا يصدقهم ، فلما حصل مع أخيهم بنيامين ما حصل من سرقة ، وهم لا يدرون أن أخاهم يوسف خطط للاحتفاظ بأخيه اعتذروا لعودتهم دون أخيهم – وقد وعدوا أباهم أن يعودوا به إلا أن يُحاط بهم ، فطلبوا إلى أبيهم أن يسأل المسافرين معهم الذين حضروا الواقعة " .. ارجعوا إلى أبيكم ، فقولوا يا أبانا ؛ إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا للغيب حافظين ، واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ، وإنا لصادقون "

التحدّي فهذا سيدنا إبراهيم يكسر الأصنام الصغيرة حين خرج قومه إلى احتفال كبير مبتعدين عن المعبد الوثني ، وترك كبير الأصنام فلم يكسره ، إنما علق عليه آلة الكسر ، ليبين لقومه سفاهة معتقدهم . فلما عادوا ، ورأوا أصنامهم مكسورة محطمة علموا أن الفتى إبراهيم هو وحده الذي يجرؤ على فعل ذلك . فلما سألوه أنكر ما فعل وأشار إلى كبير الآلهة المزعومة يتهمه على سبيل التحدى " بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم ، إن كانوا ينطقون " ولن تنطق الأصنام ، ولو كانت تنطق ابتداءً لدافعت عن نفسها ! والقصة معروفة فقد تحرك باعث الخير في أنفسهم ثم نكسوا على رؤوسهم . فقد عشعش إبليس في عقولهم وأفئدتهم ، وسكن الضلال في صدورهم ، وثبت الفساد في كيانهم ... عرفوا الحق ، ورضوا بالانتكاس فحاولوا إحراقه لكن الله تعالى نجّاه . وحين تطاول الكفار على الداعية الأول صلى الله عليه وسلم فقالوا : لا جنة ولا نار ، ولا حياة بعد الموت ، ولئن كانت حياة فنحن في الجنة لا النار !! جاء التحدي والتسفيه لأقوالهم في الآية الحادية والأربعين من سورة القلم " سلهم أيهم بذلك زعيم ؟! " وليس هناك من ضامن ولا كفيل ، إن هم إلا يخرصون .

التقريع والتوبيخ : يريد بنو إسرائيل من النبي صلى الله عليه وسلم معجزات تدل على نبوّته وحركوا كفار مكة أن يطلبوا ذلك ، فجاء القرآن يوبخهم لأنهم أساءوا إلى نبيهم موسى عليه السلام وقد جاءهم بكثير من الآيات ، وما طلبهم هذا إلا التمادي في الكفر والضلال " سل بني إسرائيل : كم آتيناهم من آية بينة " لقد شاهد بنو إسرائيل مَعَ مُوسَى آيات بينات واضحات وحججاً قَاطِعَة بِصِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ من آيات كعَصَاهُ التي انقلبت حية ، وَفَلْقه الْبَحْر وَضَرْبه الْحَجَر وَمَا كَانَ مِنْ تَظلِيل الْغَمَام علَيهِم فِي شِدّة الْحَرّ وَمِنْ إِنزَال الْمَنّ وَالسَّلوَى وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ الآيات الدالّة عَلَى وُجُود الْفَاعِل وَصِدْق مَنْ جَرَتْ هَذِهِ الْخَوَارِق عَلَى يَدَيْهِ ، ومع هَذا أَعْرَضَ كَثِير مِنهُم عَنهَا وبدَّلُوا نِعْمَة اللَّه كفرًا .

أما إن كان في الأسئلة – أياً كانت – إلحاف وخروج عن المألوف فإن الأمر ينقلب إلى ضده ، ويصبح عبئاً لا لزوم له ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أبو هريرة " لا يحب الله إضاعة المال ولا كثرة السؤال ولا قيل وقال " ، هذا إذا فهمنا أن السؤال غير طلب العطاء .

سئل النبي صلى الله عليه وسلم –كما روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه – عن أشياء كرهها ، فلما أكثروا عليه غضب ، ثم قال للناس : "سلوني عما شئتم ". قال رجل : من أبي ؟ قال : "أبوك حذافة " . فقام آخر فقال : من أبي يا رسول الله ؟ فقال : " أبوك سالم مولى شيبة . "فلما رأى عمر ما في وجهه قال : يا رسول الله ، إنا نتوب إلى الله عز وجل . ولعل هذا سبب نزول الآية الكريمة الواحدة بعد المئة في سورة المائدة " يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبد لكم تَسُؤكم ، وإن تسألوا عنه حين يُنزّل القرآن تُبدَ لكم ، عفا الله عنها والله غفور حليم " .

أما " يسألونك " وهي بيت القصيد فقد ذكرت في القرآن خمس عشرة مرة تدل على أن السؤال مفتاح العلم والسبيل إلى الوضوح والحياة الأمثل . فماذا نفهم من يسألونك ؟

الفعل جاء في صيغة المضارع الذي يفيد الاستمرار ، فلا بد من السؤال الموصل إلى الجواب ، وأعتقد أنه يستحسن طرح السؤال على العالم كي يتحدث في مواضيع يحتاجها الناس ، وهذا

أفضل – في ظني – من موضوعات يختارها العلماء والمحاضرون قد تكون مفيدة ، وقد يكون غيرها أولى منها وأكثر فائدة . والسؤال دليل على أن صاحبه يود معرفة الحقيقة ليلتزمها ، ويعمل بها ، وهذه إيجابية لو كثرتً في الأمة فهي بخير .

والمسؤول " ك (الكاف) تنبيه إلى أنّ على السائل أن يسأل العالم البصير ، لا الرجل الغرير ، فذلك البصير الحاذق يدله على الخير ، ويوضح له المسألة ويأخذ بيده إلى موطن النجاة ومسلك الصواب . كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد العلماء . وعليهم – من بعده – أن يسلوا من يسير على خطاه ، ويهتدي بهديه . أما الجاهل فيَضل ويُضِل .

ولا بد من تحديد السؤال ليكون الجواب محدداً " يسألونك (عن الشهر الحرام ، قتال فيه ، عن الخمر والميسر ، عن اليتامى ، عن المحيض ، عن الساعة ، عن الأنفال ، عن الروح ، عن ذي القرنين ، عن الجبال ، ماذا ينفقون) ولو كان السؤال عاماً فلن يشبع المتلقي ، وستكون الفائدة أقل مما ينبغي وما يسأل الإنسان إلا عن شيء يشغل باله ، فإذا سمعه تلقفه فلم ينسَه .

فإذا سئل العالم أمراً وهو يعرفه وقت السؤال أو بعد الدراسة والتمحيص فلا بد أن يجيب عنه ، إن ذلك أمانة في عنقه يحاسب عنها يوم القيامة ، ويشكر عليها في الدنيا والآخرة . لذا جاء الأمر الإلهي : " قل " فالساكت عن الحق شيطان أخرس ضيع الأمانة وترك السائل في ضلال ، " والمسلم أخو المسلم " . والأمر بالإجابة " قل " جاء في كل الآيات غير الغيبية المبذولة للتعلّم أو التي لا تتحملها العقول ، كقوله تعالى في بعض الإجابات " قل : الأنفال لله والرسول " ، وحين سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الخمر والميسر قيل له " قل فيهما إثم كبير ، ومنافع للناس " وحين سئل على الحل أجاب " قل أُحل لكم الطيبات ... " وحين سئل عن القتال في الشهر الحرام كان الجواب " قل : قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ..... " أما في السؤال عن الغيب " يسألونك عن الساعة " فمرة نجد الإجابة دون " قل " يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فيم

أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها ، إنما أنت منذر من يخشاها ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إل عشية أوضحاها " فكان الجواب من الله تعالى مباشرة ، ومرة ذكر الفعل " قل " قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ... " فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن علمها عند الله سبحانه . وأما السؤال فيما لا تتحمله عقول الناس على عهده صلى الله عليه وسلم وتُرك للزمن اكتشافه فكان الجواب بأسلوب الحكيم وهذا الغرض البلاغي يفيد أن عليكم أن تعرفوا الفائدة من الأهلّة " قل هي مواقيت للناس والحج " وتصور معي أخي القارئ لو أجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يجيب العلم عن كروية الأرض ودورانها حول الشمس، ودوران القمر حول الأرض ، وما ينتج من حجب الأرض لضوء الشمس عن القمر حين تتوسط بينهما ..لقد كان الجواب الحكيم ذكر الفائدة من القمر فقط . ولا ننسَ أن الأجوبة كانت شافية ودقيقة . تفي بالغرض من طرح الأسئلة ، ولا ننس كذلك أن الجواب حين يكون قاصراً يضطر السائل أن يعيد طرحه مرة أخرى على علماء آخرين حتى يجد بغيته ، فينبغي على العالم أن يكون جوابه شافياً مريحاً يفهمه المتلقي ويستوعبه .

ثم نجد بعد الجواب الشافي تنبيهاً إلى التقوى والطاعة في قوله تعالى بعد الإجابة عن الأنفال " فاتقوا الله ، وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين " ، ونجد بعد السؤال عن الشهر الحرام التوضيح الهام الذي يؤكد أن أعداء الله لن يقر لهم قرار حتى يؤذوا المسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً " ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ..... " ونجد بعد السؤال عن المحيض والإجابة عنه أمراً بالتوبة والتطهّر لإرضاء الله تعالى ونيل حبه سبحانه " إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين ... "

ولو عدت أخي القارئ إلى أواخر هذه الآيات التي نتحدث عنها لوجدت التربية القرآنية تتجلى في تزكية النفس وبناء المجتمع المسلم الطاهر الذي يحبه الله تعالى ويرضاه ، فاحرص على العودة إليها والتخلق بأخلاقها . نسأل الله أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علّمنا ، فهو ولينا ومولانا ، ونعم المولى ونعم النصير .

الذوق

في الصحاح للجوهري : ذُقتُ ما عند فلان : خَبِرتُه .

وفي القاموس المحيط : تذوّقته : ذقتُه مرة بعد مرة .

وفي المعجم الوسيط : ذاق الطعام : اختبر طعمه . ما ذقت نوماً : لم أجرّبه . وذاقتْه يدي : أحَسّتْه . والذوق : الحاسة التي تُمَيّز بها خواصّ الأجسام الطعمية بوساطة الجهاز الحسّيّ في الفم

وفي لسان العرب : ما نزل بالإنسان من مكروه فقد ذاقه . وفي الحديث : " إن الله لا يحب الذوّاقين والذوّاقات " يعني السريعي النكاح السريعي الطلاق . قال : وتفسيره أن لا يطمئنّ ولا تطمئنّ ، كلما تزوّج أو تزوّجَتْ كَرِها ، ومدّا أعينهما لغيرهما .

وقال ابن منظور صاحب اللسان : الذوّاق : الملول . واستذقْتُ فلاناً إذا خبرتَه ، فلم تحمد مَخبَرَته . وقال : الذوق فيما يكره ويحمد . قال تعالى : " فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون " أي ابتلاها بسوء ما خُبِرَتْ من عقاب الجوع والخوف .

وفي الحديث : "كانوا إذا خرجوا من عنده لا يتفرّقون إلا عن ذواق" ضرب الذواق مثلاً لما ينالون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخيرالكثير ، فلا يتفرّقون إلا عن علم وأدب يتعلمونه ، فيقوم مقام الطعام والشراب لأجسامهم . ويُقال : ذُقْ هذه القوس : أي انزع لِتَخبُر لينَها وشدّتها ، قال الشمّاخ :

فذاق ، فأعطَتْه من اللين جانباً كفى ، ولها أن يُغرق النبلَ حاجزُ

فلا حاجز يمنع من إغراقٍ ، ففيها لين وشدة .

وقال ابن منظور– كذلك – في لسان العرب : الذوق يكون بالفم وبغير الفم . ذاقت وبال أمرها : خبرته . وذاق الرجل عُسيلة المرأة : أولج فيها حتى ذاق خبر طيب جماعها . وذاقت عسيلته لمّا خالطها . انتهى .

فالذوق : العلم والمعرفة والخبرة عن تجربة . وأُحِسّ — من هذا السرد – أن كلمة" ذاق" تعني المعرفة الدقيقة التي يشارك فيها الحواس المادية والمعنوية في الإنسان حتى درجة الاستغراق – وإن كان المتناول قليلاً أو كثيراً – فكان فيها التلذذ والسرور ، أو الألم والعذاب ، وكلاهما ناتج عن تجربة واندماج مرغوب أو غير مرغوب .

فأما مثال الأول في القرآن ، وهو قليل ، ولعله جاء في آيتين أو ثلاث(التلذذ والسرور) فمنه : قوله تعالى : في سورة الأعراف " ...فلما ذاقا الشجرة .. " ومن جميل ما يُروى عن نتيجة الذوق هذا الحديث الموقوف : " عَنْ اِبْن عَبَّاس قَالَ كَانَتْ الشَّجَرَة الَّتِي نَهَى اللَّه عَنْهَا آدَم وَزَوْجَته السُّنْبُلَة فَلَمَّا أَكَلَا مِنْهَا بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتهمَا وَكَانَ الَّذِي وَارَى عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتهمَا أَظْفَارهمَا " وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَق الْجَنَّة " وَرَق التِّين يُلْزِقَانِ بَعْضه إِلَى بَعْض فَانْطَلَقَ آدَم عَلَيْهِ السلام مُوَلِّيًا فِي الْجَنَّة فَعَلِقَتْ بِرَأْسِهِ شَجَرَة مِنْ الْجَنَّة فَنَادَاهُ اللَّه يَا آدَم أَمِنِّي تَفِرّ ؟ قَالَ لا ، وَلَكِنِّي اِسْتَحَيْتُك يَا رَبّ قَالَ : أَمَا كَانَ لَك فِيمَا مَنَحْتُك مِنْ الْجَنَّة وَأَبَحْتُك مِنْهَا مَنْدُوحَة عَمَّا حَرَّمْت عَلَيك قَالَ : بَلَى رَبّ ، وَلَكِنْ وَعِزَّتك مَا حَسِبْت أَنَّ أَحدًا يَحْلِف بِك كَاذِبًا قَالَ وَهُوَ قَوْل اللَّه عَزَّ وَجَلَّ " وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنْ النَّاصِحِينَ " . قَالَ فَبِعِزَّتِي لأُهبِطَنّك إِلَى الأرض ، ثم لا تَنَال العيش إلاّ كَدًّا . قَال : فَأُهْبِطَ مِن الْجَنة وَكَانَا يأكلان مِنْهَا رَغَدًا فأُهبِط إِلَى غَيْر رَغَد مِنْ طَعَام وَشَرَاب فعُلِّم صَنْعَة الْحَدِيد وَأُمِرَ بِالْحَرْثِ فَحَرَثَ وَزَرَعَ ثُمَّ سَقَى حَتَّى إِذَا بَلَغَ حَصَدَ ثُمَّ دَاسَهُ ثُمَّ ذرَاهُ ثُمَّ طَحَنَهُ ثُمَّ عَجَنَهُ ثُمَّ خَبَزَهُ ثُمَّ أَكَلَهُ فَلَمْ يَبْلُغْهُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُ مَا شَاءَ اللَّه أَنْ يَبْلُغ– من التعب – .

ومنها قوله تعالى في سورة الروم " ... ثم إذا أذاقهم منه رحمة ... " فأسبغ عليهم النعم –كما يقول ابن كثير — فتذوّقوها ونسوا ما كانوا عليه من البؤس والنقمة .

كما أن من يدخل الجنة لا يذوق طعم الموت ثانية بل هناك خلود ونعيم لقوله تعالى في سورة الدخان " لا يذوقون فيه الموت إلا الموتة الآولى ، ووقاهم عذاب الجحيم " . ومن لطيف ما يروى في معنى هذه الآية الكريمة قوله صلى الله عليه وسلم " يُؤتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَة كَبش أَملَح فَيُوقَف بَيْن الْجَنَّة وَالنَّار ثمَّ يُذْبَح ثمَّ يُقَال يَا أَهل الْجَنَّة خُلود فلا موت وَيَا أَهل النَّار خُلود فلا موت " وقوله صلى الله عليه وسلم " يُقَال لأهل الْجَنَّة إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فلا تَسقَموا أَبدًا وَإِنَّ لَكم أَنْ تعيشوا فلا تَموتوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكم أَنْ تَنعَمُوا فَلَا تَبأَسُوا أَبدًا وَإِنَّ لَكم أَن تَشِبُّوا فَلَا تَهرَمُوا أَبدًا " رَوَاهُ مُسْلِم وبهذا يذوقون النعيم ويتلذذون به خالدين في جنات الله ونعيمه سبحانه .

وأما المثال الثاني — ذوق الألم والعذاب – وهو في القرآن كثير، فمنه :

قوله تعالى " ذقْ ؛ إنك أنت العزيز الكريم ! " ، والتذوق هنا عذاب شديد يستغرقه أبد الآبدينَ قَالَ عِكرِمَة :التقى النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبو جَهل فَقَالَ النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إِنَّ الله أَمَرَنِي أَنْ أَقُول لَك أَوْلَى لَك فَأَوْلَى) فَقَالَ : بِأَيّ شَيْء تُهَدِّدنِي ! وَاَللَّه مَا تَسْتَطِيع أَنْتَ ولا رَبّك أَنْ تفعلا بِي شَيئا , إِنِّي لَمِنْ أَعَزّ هَذَا الْوَادِي وَأَكرَمه عَلَى قَومه ; فَقَتَلَهُ الله يَوْم بَدْر وأذله وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآية . ويقول له الملك الموكل بتعذيبه : ذُقْ إِنَّك أَنْتَ الْعَزِيز الْكَرِيم بِزَعْمِك . وَقِيلَ : هُوَ عَلَى مَعْنَى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص ; فيُقال له : إِنَّك أَنتَ الذَّلِيل المهَان . وَهُوَ كَمَا قَال قَوم شعيب له : " إِنَّك لأنت الْحَلِيم الرَّشِيد " يَعنونَ السفيه الجاهل .ويُروى أن أبا سفيان لما رأى حمزة مقتولاً في أُحد قال : ذق عَقَقُ ؛ أي ذق طعم مخالفتك لنا وتركك دينك الذي كنت عليه : يا عاقّ قومه ، فجعل إسلامه عقوقاً! .

وقوله تعالى " فليذوقوه حميمٌ وغساق ، وآخر من شكله أزواج ..." هذا طعامهم وشرابهم اللذين يملؤون بهما البطون " فإنهم لآكلون من شجر من زقّوم ، فمالئون منه البطون فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم " وملء البطون – عادة– قمة التذوّق : أَمَّا الْحَمِيم فَهو الْحَارّ الذي قَد اِنتهى حرّه وَأَمَّا الْغَسَّاق فَهُوَ ضِدّه وَهو البارد الَّذِي لا يُستطاع مِنْ شِدَّة بَرْدِهِ الْمُؤْلِم وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ " وَآخَر مِنْ شَكْله أَزْوَاج " أَيْ وَأَشياء من هَذَا الْقَبِيل : الشَّيْء وَضِدّه

يُعَاقَبُونَ بِهَا ، وعَنْ أَبِي سَعِيد رَضِيَ اللَّه عَنْهُ أن رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيه وَسَلَّمَ أَنَّه قَالَ " لَوْ أَنَّ دَلوًا مِنْ غَسَّاق يُهْرَاق فِي الدُّنيَا لأنتن أهل الدنيا " وَرَوَاهُ الترمذِيّ .

وقوله تعالى "كل نفس ذائقة الموت " فالجن والإنس والملائكة والحيوانات ومن به روح يستغرقه الموت ، ولا يبقى سوى الواحد الأحد الفرد الصمد . ألم يقل تعالى "كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام " فهذا الذوق الشديد الذي لا ينجو منه أحد . وقد قال صلى الله عليه وسلم في تذوق الموت وشدته " إن للموت لسكرات " وكانت حرارته صلى الله عليه وسلم مرتفعة ، وكانوا يمسحون وجهه الشريف بالماء ليخففوا من شدته .

ومن تتبّع آيات الذوق في القرآن يجد فيها الإحساس بالشديد بالتذوق ، والاختبار الدقيق للشيء المتناول ، والتجربة الواسعة له . نسأل الله تعالى أن نتذوق نعيم الجنة في فردوس الله الأعلى مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين " تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا " ، ولننشد مع ابن رواحة رضي الله عنه :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها

ومع المنشد المسلم طامعين في الجنة هاربين من النار :

أن تدخلني ربي الجنة هذا أقصى ما أتمنى

(أُمـّة)

قال ابن منظور – رحمه الله – في معجمه لسان العرب : أمّ : مِن أمَمَ . وأم : قَصَد . أمَّه يؤُمّه أمّاً ، إذا قصده وتوخّاه.

ولن نتناول مشتقات هذه الكلمة ، وهي كثيرة ، فمن رغب بذلك أمّ كتب معاجم اللغة وتزوّد . إنما نريد معانيها التي وردَتْ في القرآن الكريم . ولعلنا نحاول الإحاطة – على ضعفنا – بالكثير من المعاني اللطيفة الرائعة :

تأتي بمعنى السلف الماضين من الآباء الصالحين كالأنبياء ، وذلك في قوله تعالى في الآية 134 من سورة البقرة " تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم ، ولا تُسألون عما كانوا يعملون " لا ينفعنا انتسابنا إليهم ما لم نعمل بعملهم الصالح ، فـ "كل امرئ بما كسب رهين " ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه .

وتأتي بمعنى الشريعة الواحدة والدين الواحد ، مثال ذلك في الآية 213 من سورة البقرة "كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ... " قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق ، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . وكانوا على هدى الله جميعاً فلما طال عليهم الزمن اتبعوا أهواءهم وأضلتهم الشياطين . فأنزل الله جبريل على الأنبياء بكتبهم ليهدوا الناس إلى طريق الحق والسلام .

وتأتي بمعنى العلماء والدعاة والمصلحين ، مثال ذلك الآية 104 من سورة آل عمران " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون " وهؤلاء أتباع القرآن والسنة النبوية التي تتصدى لإقامة المعوج وإصلاح الخلل في البشرية ، وقد قَالَ فيهم رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ

فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَف الإيمان " وَفِي رِوَايَة " وَلَيْسَ وَرَاء ذَلِكَ مِن الإيمان حَبَّة خَرْدَل " . هذه هي الأمة الداعية إلى إسعاد البشرية والنهوض بها في درب الهناء والأمان .

وفي قوله تعالى في الآية 181 من سورة الأعراف " وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون " يقول صلى الله عليه وسلم مدحاً لعلماء أمته ودعاتها العاملين بما يرضي الله تعالى يوم يضعف الناس ويتخاذلون ، ويستكينون لعدوهم ويتراجعون " إِنَّ مِنْ أُمَّتِي قَومًا عَلَى الْحَقّ حَتَّى يَنزِل عِيسَى اِبن مريم مَتَى مَا نَزَلَ " . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ مُعاوية بْن أَبِي سُفيَان قَالَ : قَالَ رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " لا تَزَال طَائِفَة مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقّ لا يَضُرّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ولا مَنْ خَالَفَهُم حَتَّى تَقوم السَّاعَة " وَفِي رِوَايَة " حَتَّى يأتي أمر الله وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ " وَفِي روايةٍ " وَهُمْ بِالشَّام " .

وتأتي كلمة " أمّة " بمعنى ذي طريقة حسنة وهدىً مستقيم ، مثل ذلك الآية الكريمة 113 من سورة آل عمران " ليسوا سواءً ، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون " والتقدير: مِنْ أَهل الْكِتَاب أُمَّة قَائمة وَأُخرى غَير قَائمة , فَتَرَكَ الأخرى اكتفاء بالأولى والمعنى : لا يَستوِي أُمَّة من أَهل الْكِتَاب قَائمَة يتلون آيَات الله وَأُمَّة كَافرَة. قال ابن عَبَّاس : لما أسلم عبد الله بن سلام , وثعلبة بن سعية وغيرهما من يهود ; فَآمَنُوا وصدّقوا وَرَغِبُوا فِي الإسلام وَرَسَخُوا فِيهِ , قَالَتْ أَحبار يَهُود وأهل الكفر منهم : مَا آمَنَ بِمُحَمَّدٍ ولا تبعه إلا شرارُنا , وَلَوْ كَانُوا مِنْ خِيَارنَا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره ، فنزلت هذه الآية تكذبهم وتمدح من أسلم والتزم عبادة ربه وقنت له .

وتأتي بمعنى القِسْم من الشيء لا يبلغ الشطر بل هم قليل قالوا في عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ما يليق بهما ، فقصدوا القول الحق ولم يتعدّوه . مثال ذلك الآية 66 من سورة المائدة في قوله تعالى " ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، منهم أمة مقتصدة ، وكثير منهم ساء ما يعملون " وأراد بالقصد الاعتدالَ والحقيقة أناساً من أهل الكتاب آمنوا واتقوا كالنجاشي وسلمان وابن سلام وغيرهم ، فكان

تقواهم لله سبباً في توسيع الله تعالى عليهم الرزق والخيرات ألم يقل الله تعالى في سورة الجن يؤكد الرزق الوافر لمن آمن به وعمل بمقتضى الإيمان " وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً " ؟ . وقال كذلك في سورة الطلاق " ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب " ؟ ثم وعد — في سورة إبراهيم – بالمزيد لمن اتقى وشكر ربه " وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدتكم " .وكذلك نجد الثلث أو القسم الثالث الذي على الصواب من قصة اليهود في يوم السبت في قوله تعالى في الآية 164 من سورة الأعراف " وإذ قالت أمة منهم لِمَ تعظون قوماً اللهُ مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ؟ قالوا معذرة إلى ربهم ولعلهم يتقون " فهؤلاء هم الصالحون الذين نبهوا وحذّروا ، ثم لم يخالطوا المفسدين وتميّزوا عنهم ، بينما كانت فئة ثانية نبّهت وحذّرت إلا أن ذلك لم يمنعها أن تخالط المفسدين وتؤاكلهم وتسامرهم . هؤلاء الصالحون لم يتوانَوا عن إسداء النصح والتذكير بالله حتى اللحظة الأخيرة علّ المخطئ يرعوي ويتقي الله ، ويقلع عن المعصية قبل حلول العذاب ، فينجو . وما يفعل ذلك إلا العطوف من المسلمين المحب للناس جميعاً ، الذي يأمل بالناس أن يتوبوا ويثوبوا ، ويرجعوا عن غيهم ، والمؤمن لا ييئس ويظل داعية يصدق في دعوته ، ويسعى لها بما أوتي وما استطاع.

وتأتي بمعنى : قرن وجيل . كما في قوله تعالى في الآية 34 من سورة الأعراف " ولكل أمة أجل ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون " وسيأتيهم ميقاتهم المقدّر . وقد وضح القرطبي سبب النزول فقال : إن الكفار كَانُوا " إِذَا فَعلوا فَاحشَة قالوا وجدنا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاَللَّه أَمَرَنَا بِهَا " , وَوَعيدًا منه — سبحانه – لَهُمْ عَلَى كَذِبهمْ عَلَيهِ وَعَلَى إِصرارهم عَلَى الشِّرك بِهِ وَالمقام عَلَى كُفرهمْ , ومذكراً لَهم مَا أَحَلَّ بأمثالهم من الأمم الَّذِينَ كَانُوا قَبلهم . ولكل جَمَاعَة اجْتَمَعَت عَلَى تكذيب رُسُل اللَّه وَرَدّ نَصَائِحهمْ , والشرك بالله مَعَ مُتَابَعَة رَبّهم حُجَجه عليهم وَقتٌ لحلول العقوبات بساحتهم , ونزول المثلات بهم على شركهم . ولن يؤخرهم ربهم عما قدّر لهم من عقوبات في الأجل الذي حتّمه لهم .

وتأتي الأمة بمعنى الشبيه والمثيل في الصفات والعاقبة كقوله تعالى في الآية 38 من سورة الأعراف " قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ الإنس فِي النَّارِ ، كلما دَخَلَتْ أمة لعنتْ أختَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخرَاهُمْ لأولاهم : رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا فآتهم عَذَابًا ضِعفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعفٌ وَلَكِنْ لا تَعلَمُونَ " فالله تعالى يَقول لهؤلاء الْمُشْرِكِينَ بِهِ الْمُفتَرِينَ عَلَيْهِ المكذبين بِآيَاتِهِ " ادْخُلُوا فِي أُمَم " مِنْ أمثالكم وَعَلَى صفاتكم " قد خلتْ من قبلكم " مِنْ الأمم السالفة الْكَافِرَة " من الجن والإنس في النار " إنهم يلتقون مغضبين سابين شاتمين من كان سبب دخولهم في النار واجتماعهِم فيها "كلما دخلت أمة لعنت أختَها " وقد قال الله تعالى على لسان خليله إبراهيم عليه السلام " ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضاً " ويتبرأ بعضهم من بعض " إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اُتُّبِعُوا مِنْ الَّذِينَ اِتَّبَعُوا" " فإذا التقى هؤلاء في النار جميعاً واجتمع بعضهم إلى بعض شكا الآخرون الأولين إلى الله لأنهم كانوا سبب ضلالهم فيقولون " رَبّنَا هؤلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنْ النَّار " فيجيبهم بأنه جازاهم جميعاً بما يستحقون من عذاب شديد " قَالَ لكل ضِعْف " نسأل الله العافية وحسن الختام .

وتأتي " أمة " بمعنى الأجل المعدود والأمد المحصور والمدة المضروبة . مثال ذلك قوله تعالى في الآية الثامنة من سورة هود " ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولُنّ : ما يحبسه ؟ " فالكفار يستعجلون العذاب " وإذ قالوا : اللهم ؛ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم " وفي قوله تعالى يسخر من الكفار : " يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين " كما أننا نجد معنى الزمن في كلمة " أمة " في قوله تعالى في الآية 45 من سورة يوسف : " وادّكر بعد أمة " وما تذكر إلا بعد سبع سنوات قضاها يوسف في السجن .

وتأتي بمعنى الإمام الذي يُقتدى به . مثاله قوله تعالى يمدح إبراهيم عليه السلام " إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله ، حنيفاً ، ولم يك من المشركين " فَهُوَ الإمام الَّذِي يُقتدى بِهِ وَالْقَانِت هُوَ الْخَاشِع الْمُطِيع وَالْحَنِيف المتجه قَصْدًا عَنْ الشِّرْك إِلَى التوحيد ، وهو معلم الخير والجامع له ، الذي يعلم

الناس دينهم ويدلهم على ربهم . وقد كان إبراهيم وحده مؤمناً والناس كلهم كفار ، فكان أمة وحده .

وتأتي " أمة " بمعنى جماعة من الجماعات ،

أ- وقد تكون الجماعة صغيرة قليلة، فهذا موسى عليه السلام يصل إلى مدين فيمر على جماعة من الرعاة قد لا يتجاوزون عدد أصابع اليدين يسقون أنعامهم وشاءَهم " ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون " ....

ب- وقد تكون الأمة ضخمة كثيرة العدد تعيش الحواضر والبوادي . يُرسل إليها الرسول ليهديهم طريق الرشاد ، ونجد ذلك في قوله تعالى : و" لَقَد بعثنا فِي كُلّ أُمَّة رَسُولا أَن اُعْبُدُوا اللَّه واجتنبوا الطَّاغُوت " وَقَالَ تَعَالَى " وَلِكُلِّ أُمَّة رَسُول فَإِذَا جَاءَ رَسُولهمْ قُضِيَ بَيْنهم بِالْقِسْطِ وَهُم لا يُظلَمُونَ " فالرسول يبعث في جماعة أو جماعات ويدعوهم إلى الله تعالى ، ويقيم عليهم الحجة كما قال تعالى في الآية 75 من سورة القصص " ونزعنا من كل أمة شهيداً " نبياً يشهد على العباد أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وشهيد كل أمة رسولها " فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً "

جـ -وقد تكون الأمة بمعنى الناس جميعاً لقوله صلى الله عليه وسلم " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يَسْمَع بِي أَحَد مِنْ هَذِهِ الأمة يَهُودِيّ وَلا نَصْرَانِيّ ثُمَّ لا يُؤْمِن بِي إلا دَخَلَ النَّار" وكقوله تعالى "كنتم خير أمة أخرجت للناس " بمعنى خير الأمم .

وقد تأتي بمعنى الدين والملة لقوله تعالى في الآية 23 من سورة الزخرف " إنا وجدنا آباءنا على أمة " أي على طريقة ودين ، وهم يريدون أن لا يخالفوهم

وقد تأتي كلمة أمة بمعنى التساوي والتشابه في الحياة والعطاء . مثاله قوله تعالى في الاية 33 من سورة الزخرف " ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون .. " خوفاً على المؤمنين من الفساد والفتنة حين يرون الكفار يعيشون في الدنيا حياة الرفاهية والرغد ، وهم – على الرغم من إيمانهم – أقل منهم مستوى في

الراحة والهناء والرفاهية وقد أعطى الله تعالى الكفار في هذه الدنيا الكثير من المتع العظيمة ، فهم على كفرهم وسوئهم وضلالهم – كونهم بشراً – يفعلون مع بعضهم الخير ويساعد بعضهم بعضاً فلا بد للعدل الإلهي أن يثيبهم بما فعلوه من خير في دنياهم فقط ، فليس لهم في الآخرة نصيب .

...

العَرْض

عرَض الأمر عليه : أظهره وأبداه له ، كما في القاموس المحيط .

وللعرض ومشتقاته معان كثيرة جداً ، لا نقصدها في حديثنا هذا ، ونحن إذ نتوقف عند المعنى الذي أردناه نرجو أن نثبت في أنفسنا بعض المعاني الإيمانية ، ونسأل الله أن يهدينا سواء السبيل .

عرض الله تعالى الأمانة على السموات والأرض والجبال قبل أن يعرضها على آدم عليه السلام ، والأمانة المعروضة كما قال العلماء : العبادة والطاعة لله تعالى والقيام بالفروض وأداء الواجبات ، فإن التزمنَها وأدّينها فقد نجحن ، وإن لم يفعلن ذلك فقد فشلن وعوقبن ، فأبين ذلك وعلِمْنَ أن حمل الأمانة ثقيل لا يستطعن أداءه ، ثم عُرضت الأمانة على آدم ، وقيل له : إن أحسنت أُثبت ، وإن أسأت عوقِبْتَ ، فرضي حملها ، ولم يلبث قليلاً حتى أخلّ بها . وظلم نفسه يقول تعالى في الآية 72 من سورة الأحزاب " إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً " فظلم الإنسان نفسه حين حمّلها الأمانة ، ثم لم يَرْعها حق رعايتها ، ومن سأل الله المعونة أعانه ، ولكنّ الغالبية الغالبة والكثرة الكاثرة من البشر ضيّعوا هذه الأمانة.

من العرض الدال على مكانة آدم عليه السلام عند ربه سبحانه أنه سبحانه " ... علّم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة " وذلك حين استنكروا أن يخلق الله في الأرض من يفسدها ويسفك الدماء . فسألهم الله تعالى أن يخبروه بأسماء المسمّيات التي علمها آدم ، فاعترفوا بعجزهم ، وهنا أظهر الله تعالى مكانة آدم إذ أمره أن يعلمهم بعض ما علّمه الله عز وجل . " قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم " ففعل ذلك .

يقف الناس يوم العرض – وكلهم يرون ويسمعون ما يجري إلا ما شاء الله تعالى أن يستره – فيستر الله تعالى المؤمنين حين تُعرض عليهم أفعالهم ، ويفضح الكافرين والمنافقين فيحاسبهم على رؤوس الخلائق . يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية الكريمة الثامنة عشرة من سورة هود "

ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أولئك يُعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون " يُبَيِّن تَعَالَى حَال الْمُفتَرِينَ عَلَيْهِ وَفَضِيحَتهمْ فِي الدَّار الآخرة عَلَى رُءُوس الخلائق من الملائكة وَالرُّسُل والأنبياء وَسَائِر البشر والجانّ . ويقول صلى الله عليه وسلم فِي النَّجْوَى يَوْم الْقِيَامَة " إِنَّ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ يُدْنِي المؤمن فَيَضَع عَلَيْهِ كَنَفه وَيَسْتُرُهُ مِنْ النَّاس ويقرره بذنوبه وَيَقُول لَهُ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بذنوبه وَرَأَى فِي نَفْسه أنه قَدْ هَلَكَ قَالَ فإني قَدْ سَتَرْتهَا عَلَيك فِي الدنيا وَإِنِّي أغفرها لَك اليَوم ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاته . وَأَمَّا الكفار والمنافقون فَيَقُول " الأشهاد هؤلاء الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبّهمْ ألالَعْنَة اللَّه عَلَى الظالمين ". أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيّ وَمُسْلِم فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث قَتَادَة . هكذا عَرْضُ عمل المؤمن عليه وهكذا حسابُ الكافر والمنافق يفضحهم الله أمام الخلائق جميعاً .

وقد يكون عرض العذاب بعد الموت وقبل يوم القيامة ، أي في البرزخ كما في قصة فرعون وجنده " في سورة غافر الآية 46 في قوله تعالى " النار يُعرضون عليها غدوّاً وعشيّا ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب " فَإِنَّ أَرْوَاحَهُمْ تُعرض عَلَى النَّار صَبَاحًا وَمَسَاء إِلَى قِيَام السَّاعَة فَإِذَا كَانَ يَومُ القيامة اجتمعت أَروَاحهم وَأَجسَادهم فِي النَّار . لأن عذاب الروح والجسد أشدّه أَلَمًا وَأَعظَمه نكالاً . وهذه الآية أَصل كَبِير فِي استدلال أَهل السنّة عَلَى عذاب البرزخ فِي القبور .

والعرض في الآيات القرآنية الشريفة دنوّ من الشيء ، لا دخول فيه ، وهذا الدنوّ تعذيب للكافر قبل أن يُعذب ، وقد قيل : " التخويف من الضرب والعقاب والتلويح بهما أجدى –في التربية – من استعمالهما " . وقد خوّف الله الناس من عقابه في الدنيا ، فإذا جاء اليوم الآخر كان لا بد من العقاب جزاء وفاقاً لمن كفر . ومن هنا نفهم الآيات القرآنية التي وردت في عرض العذاب على الكافرين وتيئيسهم من النجاة بعد موتهم كافرين : فالمراد في قوله تعالى – والله أعلم – " وعُرضوا على ربك صفاً : لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، بل زعمتم ن لن نجعل لكم

موعداً " أَنَّ جَمِيع الخلائق يقومون بين يدي الله صفاً واحدًا كَمَا قَالَ تَعَالَى " يوم يَقوم الرُّوح وَالملائكة صفاً لا يتكلمون إلا مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحمن وَقَالَ صَوَابًا " وَيَحْتَمِل أنهم يَقومونَ صفوفًا كَمَا قَالَ " وَجَاءَ رَبّك وَالْمَلَك صَفا صَفا " وقوله " لَقَد جِئتمونا كَمَا خلَقناكم أَوّل مَرَّة " هَذَا تقريع للمنكرين للمعاد وَتَوبِيخ لَهُم عَلَى رُءُوس الأشهاد . وَلِهَذَا قَالَ تعَالَى مُخَاطِبًا إياهم : مَا كَانَ ظنكم أَنَّ هذا وَاقِع بكم ولا أَنَّ هذا كَائن . وهل يستطيع أحد أن يكذب على الله أو يخفي عنه شيئاً وهو سبحانه يعلم السر وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ؟ لالا، فالله تعالى هو العليم بكل شيء، الخبير بكل ما خلقه . اقرأ معي بتمعن قوله تعالى الآية 18 من سورة الحاقّة " يومئذ تُعرضون ، لا تَخفى منكم خافية " فالخافية لا تخفى على الله ، أليس هو سبحانه الذي يقول في سورة الأنعام " الآية التاسعة والخمسين : " وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين " ؟ سبحانه من إله عظيم لا تخفى عليه خافية ، ولا يضيع منه شيء .

وانظر معي إلى الموقف الرهيب في ظهور النار لهم قبل أن يدخلوها ، وهم خائفون أن يُلقَوا فيها – وسيُلقَون فيها – فترتعد فرائصهم ويخافون النظر إليها ، وهم يعلمون أنهم وقودها – والعياذ بالله أن نكون من أهلها – وينظرون إليها بطرف أعينهم يستفظعون المصير الذي لا بد أن يصيروا إليه ، في الآية 45 من سورة الشورى " وتراهم يُعرضون عليها خاشعين من الذل ، ينظرون من طرْف خفيّ " نار تلظّى ، ترسل لهيبها نحوهم ، وتُسمعهم زفيرها ، وتتراءى لهم متشفيّة متوعّدة ، وهم لا يجرؤون على النظر إليها ، ويخافون أن يُلقوا فيها بين لحظة وأخرى .. لحظات عصيبة تقطع الأنفاس وتحرق المشاعر . واقرأ الآية المئة من سورة الكهف " وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً " فجاء المصدر المؤكد يبرز جهنم رأي العين كما قال ابن كثير : لِيَرَوا مَا فِيهَا مِن العَذَاب وَالنَّكَال قَبل دخولها ليكون ذلك أبلغَ فِي تعجِيل الهَمّ وَالحَزَن لَهم . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قَالَ : قَالَ رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّمَ " يُؤتى بجهَنّم تُقاد يَوم

الْقِيَامَة بِسَبْعِينَ أَلْف زِمَام ، مَعَ كُلّ زِمَام سَبْعُونَ أَلْف مَلَك " ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ : " الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنهمْ فِي غِطَاء عَنْ ذِكْرِي " فتغافَلوا وَتعَامَوا وَتَصَامَّوا عَنْ قَبُول الهدى واتباع الحق .

وفي سورة الأحقاف آيتان تبدءان بدية واحدة بجملة واحدة " ويوم يُعرض الذين كفروا على النار ..." وكانت الثانية نتيجة وتتويجاً للأولى ففي الأولى الآية العشرين يقول تعالى موبخاً الكافرين الذين رضوا بالحياة الدنيا على الآخرة ، واستكبروا على الإيمان وأهله ففجروا وفسقوا ! " ... أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ، فاليوم تُجزَون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون ." فما عذاب الهون يا رب ؟ وإلى أين مصير هؤلاء المستكبرين الذي فضلوا الدنيا على الآخرة ؟ يأتي التوبيخ أولاً فقد كفروا بالحق الذي جاءهم به الأنبياء والدعاة . ويقرون بخطئهم ، ويندمون ، ولات ساعة مندم . ويقرون بالحقيقة التي كانت تنفعهم في الدنيا لو أقرّوها ، أما حين يعاينون الأمر ويرونه رأي العين وهم بين يدي الله تعالى فلا فائدة ، لقد أضاعوا الفرصة الذهبية التي لا يمكن أن تُعوّض . ثم يأتي العذاب الأليم جزاء وفاقاً في الآية الرابعة والثلاثين " ... أليس هذا بالحق ؟ قالوا بلى وربنا . قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون " .

أما قوله تعالى في سورة (ص) الآية 31 " إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد " في معرض قصة سيدنا سليمان فقد أفسدت الروايات الإسرائيلية معناها الجهادي الرائع ، وأساءوا إلى سليمان كما أساءوا إلى أبيه داوود عليهما السلام – وهما عند اليهود مِلِكان وليسا نبيين – فتفسير القصة كما يلي :

، إنه مجاهد في سبيل الله تعالى يحب كل ما يعينه على القتال في سبيله وإعلاء رايته . ومن ذلك أنه يحب الخيول الأصيلة – سلاح الفرسان ، وهي القوة الضاربة في قتال العدو ، فأمر أن تعرض عليه الخيول ليستمتع بها ويطمئن إليها ، فعرضت أمامه وهو يتابعها شغوفاً بها حتى غابت عنه " حتى توارت بالحجاب " فلم يبرد شوقه لها ، فأمر أن يعيدوها إليه ، ثم نزل إلى ساحة العرض يتلمّس الخيول ويمسح أعناقها وسوقها ، ويتحبب إليها ، والمقصود بقوله تعالى "

إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي " أن حبه للخيل صادر عن أمر الله تعالى . وهذا هو المعنى الحقيقي لهذه الآية .أما الرواية الإسرائيلية فتدليس واستخفاف بعقول الناس لأسباب عدة هي :

أ- إن التأويل عادة يتبع الكلام الذي بين أيدينا ، فما التي توارت بالحجاب ؟ إنها الخيول التي غابت عن ناظريه إذ مرت أمامه وهو يستعرضها حتى غابت عن عينيه ، لا الشمس التي تعسفتها التأويلات الإسرائيلية ، إذ قالوا : أنه انشغل بالخيول حتى عابت الشمس ففاتته صلاة العصر .

ب – إن سليمان عليه السلام شعر أنه لم يفِ الخيول حقها بالاستعراض السريع ، فأمر أن يردوها إليه ليلمسها بيديه ويكرمها بالتربيت على أعناقها وسوقها ، لأنه لو جاز أن يكون الضمير في " توارت بالحجاب " عائداً على الشمس لوجب أن يكون الضمير في " ردوها علي " عائداً على الشمس نفسها ، أما القفز هنا وهناك للوصول إلى الشمس فلا يليق بنص رزين ، ناهيك عن كتاب الله الكريم .

ج – وهل تتصور عاقلاً كان يَعُد ماله ، فانشغل به حتى ضيع صلاته ، فأحرق المال يعاقب بذلك نفسه؟! فإذا كان ما يفعله سفهاً وطيشاً فالنبي سليمان منزه عن قطع أعناق الخيول وسُوقها لأنها – على زعم الإسرائيليات – شغلته عن الصلاة !! ما ذنب الخيول المسكينة لتذبح وتقتل ، والخطأ ليس خطأَها ؟!

– روت السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول في بعض صلاته : اللهم ! حاسبني حسابا يسيرا ، قلت : يا نبي الله ! ما الحساب اليسير ؟ ! قال : أن ينظر في كتابه ، فيتجاوز عنه ؛ إنه من نوقش الحاسب – يومئذ – يا عائشة ! هلك. اللهم ؛ إن تَعرض علينا أعمالنا فارفق بنا وتجاوز عن سيئاتنا ، وارحمنا يوم العرض عليك يا أرحم الراحمين ويا أكرم الكرماء .

الوفاة

التفت إليّ أحد المصلين اليوم بعد انتهائنا من أداء صلاة الفجر – وكان رجلاً من عوام الناس – يقول متلهفاً : يا أبا حسان ؛ فاجأني جاري النصراني أمس بسؤال لا أعرف جوابه ، حين قال : كيف تقولون – معشر المسلمين – إن عيسى حيّ في السماء عند ربه ، والقرآن يعلن أنه ميت ؟ وقرأ علي قوله تعالى في الآية 55 من سورة آل عمران " إذ قال الله يا عيسى ؛ إني متوفيك ، ورافعك إليّ ، ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ..." وما دمنا أتباعه –كما يقول النصراني – فنحن ظاهرون فوقكم إلى يوم القيامة ، وأنتم الكافرون . إن الآية في قرآنكم تقول هذا .

ونظر صاحبي إليّ متحسراً متألماً قائلاً : لم أستطع الرد ، فأنا لا أعرف إلا أساسياتٍ من الدين ، وإيماني بالله راسخ ، لكنني أجهل الكثير من الأحكام والمعاني الإسلامية .

قلت يا أخي ؛ أحسنت صنعاً حين سألتني فلم تترك للشيطان مسرباً يصل منه إليك ، ولا يكون الرسوخ في الشيء إلا بالعلم به علماً تاماً يمنع الشك أن يأتيه . ويطرد الشيطان وأعوانه أن ينفذ إليك بأسئلة ومعانٍ تثير الشكوك والشبهات ، هذا أولاً . أما ثانياً فنحن أتباع عيسى الحقيقيون ، فهو عليه السلام يعلن بملء فيه أنه عبد لله ، وبشر رسول " قال : إني عبد الله ،آتاني الكتاب ، وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ..." وهم يؤلهونه ويفترون عليه وعلى أمه حين يجعلونه إلهاً وابن إله ، ويجعلون أمه مريم زوجة الإله – سبحان الله أن يكون له وزجة أو ولد " وأنه تعالى جَدّ ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً " ، وأما ثالثاً فعودتنا إلى ديننا والتزامنا به يجعلنا سادة البشر ، وما استعلاء النصارى وغيرهم إلا ببعدنا عن هدي الإسلام وشرعته . ورابعاً فالوفاة لا تعني الموت إلا بقرينة تؤكده .

المعنى اللغوي لكلمة : توفّاه الله : استوفى مدته التي كتبها له ، عددَ أيامه وشهورَه وأعوامَه في الدنيا . وفي القرآن آيات تدل على أن الوفاة غيرُ الموت إلا بقرينة —كماذكرنا قبل قليل — وسنأتي ببراهين كثيرة وأدلة توضح المعنى وتوثّقه .

ففي قوله تعالى في سورة الأنعام الآية الستين " وهو الذي يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجل مسمّى ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون " فالنوم كل ليلة غَيبة مؤقتة تستريح الروح فيها لتعاود النفسُ نشاطها في النهار ، يقبضُ فيها الروح ثم يبعثها إلى اكتمال الأجل . إن الوفاة هنا – إذاً– غيبة للروح مؤقتة تعود حين يستيقظ المرء .

وفي قوله تعالى في الآية الثانية والأربعين من سورة الزمَر " الله يتوفّى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمتْ في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ، ويرسل الاخرى إلى أجل مسمّى .. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ". ففي الحالتين — الموت والنوم – قبض للروح ووفاة (استيفاء) وللموت أجل معدود . يقول ابن منظور في معجمه لسان العرب : " وأما تَوَفّي النائم فهو استيفاءُ عقلِه وتمييزه حين نام .

وعلى هذا نفهم الآية التي لوى النصراني معناها ، وفسرها كما يريد ، نفهمها بلغة العرب التي نزل القرآن بها أنه قبْضٌ دون موت . ولا بدّ من ملاحظة قوله تعالى " ورافعك إليّ ، ومطهّرك من الذين كفروا " فقد أنقذه الله تعالى حين رفعه إلى السماء إذ دخل اليهود عليه يريدون قتله ، فنجّاه الله منهم . إن عيسى عليه الصلاة والسلام لم يمت وهو في السماء ، دليل ذلك أسماءُ الفاعلين : (رافعك ، مطهرك ، جاعل) المضافة إلى الضمير الكاف للدلالة على الاستمرارية حين ينزل إلى الأرض ويقاتلُ المشركين ويكسرُ الصليب ويقتلُ الخنزير كما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو هريرة " ليُهبِطن اللهُ عيسى بن مريم حكما عدلا وإماما مقسطا ، يكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال ، حتى لا يجدَ من يأخذه ، وليسلكن الروحاء حاجا أو معتمرا ، أو ليثنيّنّ بهما جميعا " وسوف يحكم بالإسلام ويحجُّ بيت الله الحرام ويعتمرُ.

وتكون الوفاة موتاً بقرائن دالة عليه ، في القرآن أمثلة كثيرة نذكر بعضها :

قوله تعالى في الآية 97 من سورة النساء " إن الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيمَ كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض . قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟..."

والقرينة هنا حديث الملائكة مع الكفار الذين ظلموا أنفسهم وماتوا وهم كافرون ، فلا تكلم الملائكة البشر ولا سيما الكفار إلا بعد الموت ....

قوله تعالى في الآية 61 من سورة الأنعام " حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا " فالقرينة هنا الموت نفسه ، والملائكة التي تقبض الأرواح .

قوله تعالى في الآية 101 من سورة يوسف " توفّني مسلماً ، وألحقني بالصالحين " فالقرينة في هذه الآية الرغبة في الموت على الإسلام وأن يلحق يوسف عليه السلام يالأنبياء قبله على ملتهم ودينهم .

قوله تعالى في الآية الخامسة من سورة الحج " ومنكم من يُتوفى ، ومنكم مَن يُرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً " فالدليل على أن الوفاة هنا موتٌ أن البعض تطول أعمارهم حتى يصيبهم الخرف .

وقوله تعالى في الآيات 27- 32 من سورة النحل ففيها تصوير بديع مخيفٌ في استقبال زبانية العذاب للمشركين الذين ظلموا أنفسهم في جهنم مع التوبيخ والسخرية ، وتصويرٌ بديع مفرح لاستقبال الملائكة مَن آمن استقبالاً طيباً فيدخلونهم الجنة معززين مكرمين " .. إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، فألقَوا السلم ماكنا نعمل من سوء ، بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ، فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فلبئس مثوى المتكبرين ، وقيل للذين اتّقَوا : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا خيراً . للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون ، كذلك يجزي الله المتقين ، الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ، ادخلوا الجنة بما

كنتم تعملون " . نسأل الله أن يكتبنا في عباده الطيبين الذين يكرمهم في الفردوس وجنات النعيم .

وقوله تعالى في الآية 234 من سورة البقرة في عدة الأرامل ، ولا تكون المرأة أرملة إلا حين يموت زوجها وتجب عليها العُدة " والذين يُتوفَّون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة اشهر وعشراً " .

وتُذكر كلمة الموت دون الوفاة حين لا تكون هناك قرينة دالة على أن الوفاة موت ، والدليل على ذلك

قوله تعالى في حادثة موت سيدنا سليمان عليه السلام في قوله تعالى في الآية 14 من سورة سبأ " فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته " ولم يقل : فلما قضينا عليه الوفاة .. ما دلهم على وفاته ،

وقوله تعالى في الآية الثلاثين من سورة الزمر " إنك ميّت وإنهم ميّتون " حين أخبرنا أنه لا بد من الموت ، وأن كل نفس ستذوقه , ولم يقل إنك متوفّ وإنهم متوفَّون .

في أواخر سورة المائدة تصوير لحوار جرى بين صاحب العزة سبحانه وبين عيسى عليه السلام يسمعه الخلائق كلها تثبيتاً لوحدانية الله وتبرئة لعيسى عليه السلام من دعوى الألوهية له ولأمه ، ولتثبيت نبوّته ونفيٍ بنُوّتِه : " إذ قال الله يا عيسى بن مريم ؛ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ "

قال سبحانك ؛ ما يكون لي أن أقولَ ما ليس لي بحق ، إن كنتُ قلتُه فقد علمْتَه ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ، إنك أنت علام الغيوب ،ما قلت لهم إلا ما أمرتني به : أنِ اعبدوا الله ربي وربّكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم "

وذكرت كلمة " توفيتني " لأن الحديث عن الزمن الذي كان فيه عيسى في السماء قبل أن ينزل على الأرض ، وبمعنى آخر لم يكن قد مات بل كان حياً في السماء ، وما يموت إلا بعد نزوله إلى الرض ، ومحاربته الدجال ، وقتله في باب لد ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم " ... أنه إذا خرج مسيح الضلالة الأعور الكذاب نزل عيسى بن مريم على المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين ، واضعا يديه على منكبي ملكين ، فإذا رآه الدجال انماع كما ينماع الملح في الماء(ذاب) ، فيدركه فيقتله بالحربة عند باب لد الشرقي على بضع عشرة خطوات منه " من موقع الدرر السنية (الحديث صحيح)

والأمثلة كثيرة يمكن الرجوعُ إليها والاستيثاقُ منها ... والله أعلم .

البلاء

قال ابن منظور في لسان العرب : بلوت الرجل بَلْواً وبلاء ، وابتليته : اختبرته . وكذلك قال الفيروزآبادي في قاموسه المحيط .

نجد هذا المعنى في قوله تعالى في الآية 17 من سورة القلم " إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون " فاختبرهم الله تعالى بعد موت أبيهم الصالح . ونراه في قوله تعالى في الآية 31 من سورة محمد صلى الله عليه وسلم " ولنبلوتكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين "

وقد تأتي هذه الكلمة في القرآن الكريم تتضمن معاني أخرى بالإضافة إلى المعنى الأصيل فيها (الاختبار) فيها تفصيل وتنويع وتوضيح . من ذلك :

أن الابتلاء يكون بالخير والشر كما في قوله تعالى في الآية 35 من سورة الأنبياء " ونبلوكم بالخير والشر فتنة وإلينا ترجعون " قال ابن كثير في تفسيره : نختبركم بِالْمَصَائِبِ تَارَة وَبِالنِّعَمِ أُخْرَى فَنَنْظُر مَنْ يَشْكُر وَمَنْ يَكْفُر وَمَنْ يَصْبِر وَمَنْ يقنط كَمَا قَالَ اِبْن عَبَّاس : نبلوكم بِالشِّدَّةِ وَالرَّخَاء وَالصِّحَّة وَالسَّقَم وَالْغِنَى والفقر والحلال وَالْحَرَام وَالطَّاعَة وَالْمَعْصِيَة وَالْهُدَى والضلال فإذا رجعتم إلينا – يوم القيامة – جازيناكم بأعمالكم . وكذلك في قوله سبحانه في الآية 168 من سورة الأعراف " وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون " والرجوع هنا التوبةُ والإقلاعُ عن الذنب والاستغفار .

ومن فضل الله تعالى علينا أنه حين يختبرنا يحملنا ما نطيقه . يدل على ذلك قوله تعالى في الآية 155 من سورة البقرة " ولنبلوَنّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين " والابتلاء القليل ينبه برفق ولا يصيب صاحبه بالفزع ، فإن كان الابتلاء شديداً كما في قوله تعالى في الآية 112 من سورة النحل " فَأَذَاقَهَا اللَّه لِبَاس الْجُوع وَالْخَوْف " فإنه يفزع القلب ويضيّع العقل وهوعلامة الهلاك والدمار .وليس للإنسان طاقة بذلك

، أذاق الله الكفار من أهل مكة لباس الجوع حين كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم واِسْتَعْصَوْا عليه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَوْا إلا خلافه فَدَعَا عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُف ، فَأَصَابَتْهُمْ سَنَة أَذْهَبَتْ كُلّ شَيْء لَهُمْ ، فَأَكَلُوا وَبَر الْبَعِير يُخْلَط بِدَمِهِ إِذَا نَحَرُوهُ وخافوا لأنهم بُدِّلُوا بِأَمْنِهِمْ خَوْفًا مِنْ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابه حِين قاتلهم ونصره الله عليهم .

ويكون الابتلاء بمعنى العلم والمعرفة كما في قوله تعالى في الآية 9 من سورة الطارق " يوم تُبلى السرائر " تُبلى يَوْم الْقِيَامَة فيظْهَر ما كان الإنسان يخفيه من سر ويبقى السِّرّ علانية والمكنون مشهوراً ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ اِبْن عُمَر أَنَّ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ " يُرْفَع لكل غَادِر لِوَاء عند اِسْته يُقَال : هذه غَدْرَة فلان ابن فلان" . ومثلها في الآية الثلاثين من سورة يوسف " هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت " فتعلم ما سلف من عملها ، ألا يقول تعالى " يُنبّأ الإنسان بما قدم وأخّر " فالصحف تنشر " وإذا الصحف نشرت " يقول تعالى " وَنُخرِج لَهُ يَوْم الْقِيَامَة كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ، اِقْرَأْ كِتَابك كَفى بِنَفْسِك الْيَوم عَلَيْك حَسِيبًا " ... وفي قوله تعالى في الآية 154 من سورة آل عمران " وليبتلي الله ما في صدوركم ، وليمحص ما في قلوبكم ..." إظهار المخبوء إلى العلن وكشفه للجميع في ذلك اليوم العصيب نسأل الله العافية وحسن الختام .

وقد يكون في الابتلاء- وقد : هذه للتحقيق- إظهار فضل الله تعالى على المسلمين ، يقول تعالى في الآية 17 من سورة الأنفال " وليُبلي المؤمنين منه بلاء حسناً " وقد قال تعالى " ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة " فكان نصره إياهم فضلاً عميماً ، فالله هو الْمَحْمُود عَلَى جَمِيع مَا صَدَرَ مِنْهُمْ مِنْ خَيْر في معركة بدر إذ قَالَ " فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّه قَتَلَهُمْ " ولم يكن ذلك النصر بحول المسلمين وقوتهم ، فقد كانوا قليلين ضعافاً ، وَإِنَّمَا النَّصْر مِنْ عِنْده تَعَالَى ، روى ابن عباس أن رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رفع يَدَيْهِ يَوْم بَدْر فَقَالَ " يَا رَبّ إن تهلك هَذِهِ الْعِصَابَة فَلَنْ تُعْبَد فِي الأرض أَبَدًا " فَقَالَ لَهُ جِبْرِيل خُذْ قَبْضَة مِنْ التُّرَاب فَارْمِ بِهَا فِي وُجُوههمْ فَأَخَذَ قَبْضَة مِنْ التُّرَاب فَرَمَى بِهَا فِي وُجُوههمْ فَمَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ أَحَد إلا أَصَابَ عَيْنَيْهِ وَمَنْخِرَيْهِ وَفَمه تُرَابٌ

مِنْ تِلْكَ الْقَبْضَة فَوَلَّوْا مدبرين ، ثُمَّ رَدَفَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ يقتلونهم ويأسرونهم ، فعرّف الله تعالى الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَته عَلَيْهِمْ مِنْ إِظْهَارهمْ عَلَى عَدُوّهُمْ مَعَ كَثْرَة عَدُوّهُمْ وَقِلَّة عَدَدهمْ لِيَعْرِفُوا بِذَلِكَ حَقَّهُ وَيَشْكُرُوا بِذَلِكَ نِعْمَته

ويأتي مع البلاء إسعاد المسلمين ورفع درجاتهم ، فيكون فيه الخير الكثير مما يحفزهم إلى الاجتهاد في البلاء والصبر والتحمل ، يقول الله تعالى في الآية الرابعة من سورة محمد صلى الله عليه وسلم : " ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ..." ففي قتال العدو محامد كثيرة منها الشعور بالعزة والنصر وشفاء قلوب المؤمنين وراحة النفس، قال تعالى " قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويُذهب غيظ قلوبهم " وهذه سعادة ما بعدها سعادة نرجو الله أن يحققها فينا فنرى في عدونا ما تقر به العيون . هذا في الدنيا أما الشهيد فله في الآخرة ست خصال : قَالَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " إن للشهيد عند الله ست خصال : أن يغفر له في أول دفقة من دمه، ويُرى مقعده من الجنة ، ويُحَلّى حلة الإيمان ، ويُزَوّج من الحور العِين ، وَيُجَار مِنْ عَذَاب القبر ، وَيَأْمَن مِن الْفَزَع الأكبر، وَيُوضَع عَلَى رَأْسه تَاج الْوَقَار مرصع بالدر والياقوت ، الياقوتة خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زَوْجَة مِن الحُور الْعِين ، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه " أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيّ وَصَحَّحَهُ وَابْن مَاجَهْ .

(سلك) ومشتقاتها

يقول ابن منظور – رحمه الله – في معجمه لسان العرب : سلكت الشيء في الشيء ، فانسلك أي أدخلته فيه فدخل ، وسلَكتُه وأسلكته بمعنى واحد – يقصد أنهما متعديان لمفعول – ويقول قاصداً السرعة والدقة في إيجاد المدخل : السّلْك : إدخال شيء تسلكه فيه كما تطعن الطاعن فتسلك الرمح فيه إذا طعنتَه تلقاء وجهه على سجيحته (سجيته السهلة) . ولا يكون الطعن إلا سريعاً ينفذ إلى الداخل بقوة ودقة . وعلى هذا فرجل مُسلّك : نحيف . والنحافة تسهل عملية السلْك .

وجاء الفعل (سلك) بمشتقاته إحدى عشرة مرة تحمل هذه المعاني المتشابهة :

ففي قوله تعالى الآية 42 من سورة المدثر " ما سلككم في سقر " تسأل الملائكة المشركين سبب دخولهم النار ، : وَقِيلَ : إِنَّ المؤمنين يَسْأَلُونَ الملائكة عَن أَقْرِبَائِهِم , فَتَسْأَل الملائكةُ الْمُشْرِكِينَ فيقولون لهم : " مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَر " فأدخلكم فيها ؟ وهذا المعنى واضح في الآيات السابقة لهذه الآية حيث يسأل المؤمنون – وهم في الجنة يتنعمون – الكفارَ في النار " إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين : ما سلككم في سقر " فيجيبونهم بأمرين اثنين كانوا يجتنبونهما " قالوا لم نَكُ من المصلين ، ولم نَكُ نطعم المسكين " ففي أولهما استنكفوا عن عبادة الله تعالى ، وفي ثانيهما لم يكونوا يحسنون إلى عباده . ويجيبونهم بأمرين اثنين آخرين كانوا يخوضون فيهما " وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين " . أما خوضهم فكان في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ اتهموه بالسحر والكهانة والكذب والشعر .. وكانوا تبعاً لعتاة المكذبين الضالين . أما المصيبة الأخيرة قاصمة الظهر فكانت في كفرهم بالله وإنكارِهم اليومَ الآخر .

وأما قوله تعالى في الآية المئتين 200 من سورة الشعراء وما بعدها "كذلك سلكناه في قلوب المجرمين ، لا يؤمنون به حتى يرَوُا العذاب الأليم " فقد أدخل الله تعالى الشرك في قلوبهم لأنهم طلبوه " قل : من كان في الضلالة فليمدُدْ له الرحمن مداً " وقوله تعالى في سورة الإسراء " من

كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً " فهم – المشركين – لا يؤمنون حتى يقعوا في الواقعة التي لا خلاص منها . ونجد المعنى نفسه في الآيتين الثانية عشرة والثالثة عشرة من سورة الحجر "كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ، لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين " فيكذبون بالقرآن العظيم والرسول الكريم ، فيعاقبهم الله تعالى بإدخال الكفر في قلوبهم ليكونوا من أهل النار ، والعياذ بالله أن نكون من أهلها .

ونجد في الاية السابعة عشرة من سورة الجن المعنى نفسه إذ يقول الله تعالى " ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صَعداً " والعذاب الصعد : المشقة التي لا راحة فيها . بل تزداد وتيرته وتتصاعد . قال القرطبي " يُكَلَّف الْوَلِيد بْن الْمُغِيرَة أَنْ يَصْعَد جبلاً فِي النَّار مِنْ صَخْرَة مَلْسَاء , يُجذب مَن أَمَامه بسلاسل , وَيضرِب مَنْ خَلفه بِمَقَامِع حَتَّى يبلُغ أعلاها , ولا يبلغ فِي أَربعِينَ سَنَة . فَإِذَا بَلَغَ أعلاها أُحدِرَ إِلَى أَسْفَلهَا , ثم يُكَلَّف أَيْضًا صُعُودهَا , فَذَلِكَ دَأْبه أَبَدًا , وَهُوَ قَوْله تَعَالَى : " سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا " [الْمُدَّثِّر : 17].

أما قوله تعالى في سورة الحاقة يصف عذاب المشركين الكافرين " ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه " . فمخيفٌ والله ومخزٍ إذ تدخَل السلسلة مِنْ فِيهِ وَتخرَج مِنْ دُبُره , فَيُنَادِي أَصْحَابه هَلْ تعرفونني ؟ فيقولون : لا , وَلَكِنْ قد نرى مَا بِك مِنْ الخِزْي فَمَنْ أَنْتَ ؟ فَيُنَادِي أَصْحَابَهُ أَنَا فلان بن فلان , لِكُلّ إِنْسَان منكم مثل هَذا . ولعل هذا التفسير أَصَحّ مَا قِيلَ فِي هَذِهِ الآية , يَدُلّ عَلَيْهِ قَوْله تَعَالَى : " يَوْم نَدْعُو كُلّ أُنَاس بِإِمَامِهِمْ " الإسراء 71 .

وأود أن أؤكد أن " السلك " في هذه الايات إدخال الشيء في شيء بعد إيجاد مسلك له لم يكن موجوداً من قبل وبهذا يكون الألم الشديد نسأل الله العافية .

– أما في الآية 27 من سورة الجن " إلا من الرتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً " فالمعنى كما قالت العلماء : رَحْمَة الله عَلَيْهِمْ : لَمَّا تَمَدَّحَ سُبْحَانَهُ بِعِلْمِ الْغَيْب واستأثر من البشر من يرضاهم رسله ، وخاب من أشرك به , كَانَ فِيهِ دلِيل عَلَى أَنَّهُ لا يَعلَم الْغَيب أَحدٌ سِوَاهُ , ثمَّ استثنى مَن ارتضاه من الرسل , فَأودعهم مَا شَاءَ مِنْ غَيبه بِطَرِيقِ الْوَحي

إِلَيهِم , وَجعَلَهُ مُعْجِزَة لَهم ودلالة صَادِقَة عَلَى نُبُوَّتهمْ . أما المنجّمون أمثالهم مِمَّنْ يَضْرِب بِالْحَصَى وَيَنْظُر فِي الْكُتُب وَيَزْجُر بِالطَّيْرِ مِمَّن اِرْتَضَاهُ مِنْ رَسُول فَيُطْلِعهُ عَلَى مَا يَشَاء مِنْ غَيْبه , بَلْ هُوَ كَافِر بِاَللَّهِ مُفترٍ عليه بحَدْسِهِ وَتَخمِينه وَكَذِبه . ثم سلك الله ملائكة يَحْفَظُونَهُ عَنْ أَن يقرب مِنهُ شَيْطَان ; فَيَحْفَظ الوَحي مِنْ اِسْتِرَاق الشَّياطِين والإلقاء إِلَى الْكَهَنَة . قَالَ الضَّحَّاك : مَا بَعَثَ اللَّه نَبِيًّا إلاّ وَمَعَهُ ملائكة يَحْرُسُونَهُ مِنْ الشياطين عَنْ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِصُورَةِ الْمَلَك , فَإِذَا جَاءَهُ شَيْطَان فِي صُورَة الْمَلَك قَالُوا : هَذَا شَيْطَان فَاحْذرْهُ . وَإِنْ جَاءَهُ الْمَلَك قَالُوا : هَذَا رَسُول رَبّك. وَقَالَ اِبن عَبَّاس: " رَصَدًا " هم حَفَظَة يَحْفَظُونَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَمَامه وَوَرَائِهِ مِنْ الْجِنّ والشياطين . قَالَ قَتَادَة وَسَعِيد بْن الْمُسَيِّب : هُمْ أَرْبَعَة مِنْ الملائكة حَفَظَة . ونلحظ بالسلك هنا الإحاطة والحراسة والصون .

– ونرى في الآية 53 من سورة طه " الذي جعل لكم الأرض مهداً ، وسلك لكم فيها سُبُلاً " فجعل الله تعالى الأرض قراراً تَسْتَقِرُّونَ عَلَيْهَا وَتَقُومُونَ وَتَنَامُونَ عَلَيْهَا وتسافرون على ظهرها وَسَلَكَ لكم فِيهَا سُبُلا أَيْ و طُرُقًا تَمْشُونَ فِي مَنَاكِبهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى " وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ " ونلحظ " بالسلك " التنظيمَ والترتيب ودقة الصنع . يقول القرطبي " هي الطُرُق . نَظِيره قوله تعالى " وَاَللَّه جَعَلَ لَكُمْ الأرض بِسَاطًا . لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلا فِجَاجًا " سورة نوح 19–20، والفج : المسلك بين جبلين .

– وفي الآية 32 من سورة القصص " اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء " نرى السهولة واليسرفي الإدخال والإخراج ، قال القرطبي " إِذَا أَدخَلْت يَدك فِي جَيب دِرْعك ، ثمَّ أَخرَجتهَا فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر فِي لَمَعَان البرق مِن غير بَرَص " وقال الحسن البصري " لما خرجت يده كأنها المصباح أيقن مُوسَى أَنّه لَقِيَ رَبّه. "

– كما نجد رحمة الله في الاحتفاظ بالماء العذب النازل من السماء في تجاويف الأرض . يقول الله تعالى " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء، فسلكه ينابيع في الأرض .. " فالماء من السماء ابتداءً " وانزلنا من السماء ماء مباركاً " فَإِذَا أَنْزَلَ الْمَاء مِنْ السَّمَاء كَمَنَ فِي الأرض ثمَّ يَصْرِفهُ تَعَالَى فِي

أجزائها كَمَا يَشَاء ، وَيُنْبِعهُ عُيُونًا مَا بَيْن صِغَار وَكِبَار بِحَسَبِ الْحَاجَة إِلَيْهَا . فهذا الإدخال سهل ميسر يُحفظ بأمر الله في الخزانات الأرضية التي جُهزت للاحتفاظ بالماء في بحار عذبة في تجاويف الأرض .

– أَذِنَ الله تعالى للنحل إِذْنًا قَدَريًّا تَسْخِيريًا أَنْ تأكل من كل الثمَرَات وَأَنْ تسلك الطُّرُق الَّتِي جَعَلَهَا الله تَعَالَى مُذَلَّلَة لَهَا ومُسَهَّلَة عليها حيث شاءت مِنْ هَذَا الْجَوّ الْعَظِيم وَالْبَرَارِيّ الشاسعة وَالأودية وَالْجبال الشاهقة ثمَّ تَعُود كُلّ وَاحِدَة مِنْهَا إِلَى بَيْتهَا لا تَحيد عنه يَمْنَة ولا يَسرة بَل إِلَى بَيْتهَا وَمَا لَهَا فِيهِ مِنْ صغار وَعَسَل فَتَبْنِي الشَّمْع وتصنع الْعَسَل مِنْ فِيهَا وَتَبِيض الْفِرَاخ ، ثُمَّ تُصبِح إِلَى مَرَاعِيهَا . وَقَالَ قَتَادَة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم " فَاسْلكِي سُبُل رَبّك ذُلُلا " أَيْ مُطِيعَة فجعلاه حالاً مِن السَّالكة.

ونحن ندعو الله تعالى أن يَسلكنا في عباده الصالحين ، دون حساب ولا عقال ، وأن وأن يسلكنا الجنة فيجعلها مأوانا ، إنه على مايشاء قدير ، وبالإجابة جدير.

العدل

قال ابن منظور في معجمه لسان العرب : العدل ما قام في النفوس أَنه مُسْتقيم، وهو ضِدُّ الجَوْر. عَدَل الحاكِمُ في الحكم يَعْدِلُ عَدْلاً ، وفي أَسماء الله سبحانه: العدل هو الذي لا يَمِيلُ به الهوى فيَجورَ في الحكم، وهو في الأَصل مصدر سُمِّي به ، فوُضِعَ مَوْضِعَ العادِلِ، وهو أَبلغ منه لأَنه جُعِلَ المسَمَّى نفسُه عَدْلاً.

وفي صحاح اللغة العدل :خلاف الجَوَر. يقال: عَدَلَ عليه في القضيّة فهو عادِلٌ .

وفي مقاييس اللغة : العدلُ : العين والدال واللام أصلان صحيحان، لكنَّهما متقابلان كالمتضادَّين: أحدُهما يدلُّ على استواء، والآخر يدلُّ على اعوجاج .

ونجد في القرآن الكريم كلمة العدل بمشتقاتها وردت ثماني وعشرين مرة أدّتْ فيها معاني عدّة . وهذا دأب العربية المطواعة التي مدحها الله تعالى في قرآنه المجيد " إنا أنزلناه قرآناً عربياً " وقال " بلسان عربي مبين " . ومن جمال لغتنا العربية أن كثيراً من كلماتها تحمل التضاد في المعنى إنْ وحدها كقولك : الجون ، السليم ، الزعيم .. أو بحروف جر توضح المعنى كقولك : ذهب إليه ، فأتاه ، وذهب عنه فقلاه . وتقول : رجعت إليه ورجعت عنه . وتقول دخلت فيه ودخلت منه ، فتولدت معان متعددة تساعد على إثراء الأفكار والمعاني، والسياحة فيها بسهولة ، والتعبير عنها بسلاسة .

وقد ورد العدل في الآيات الكريمة يحمل دلالات متعددة –كما ذكرنا – منها :

الاستقامة والمساواة كقوله تعالى في الآية 15 من سورة الشورى " وأُمرت لأعدل بينكم " فالله أمر نبيه الكريم أن يحكم بالعدل والمساواة بين الناس أحَبهم أم كرههم ، فقد قامت الدنيا على العدل والحياة الطيبة على المساواة ، أما الظلم والجور فموت وقهر . ولو قرأنا الكلمات المضيئة قبل قوله " وأمرت لأعدل بينكم " وبعدها ، وهي قوله تعالى "

فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ

وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ

ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ
وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ۖ
وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ
اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ
لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ
لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ
اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ

لوجدنا الإسلام يدعو أتباعه للحياة في جو رائع من القيم التي تجعل الحياة هانئة سعيدة ،

فالدعوة إلى الله أول الطريق والغاية من هذه الحياة ، وعلى الداعية أن يكون الأسوة والقدوة فيستقيم في تصرفاته على هدي ونور من الله ، ويبتعد عن الأهواء " ومن أضلّ

ممن اتبع هواه بعير هدىً من الله ؟ " والمسلم يؤمن بكل الأنبياء صلوات الله عليهم وكتبهم ".... لا نفرق بين أحد من رسله ..." وبذلك كانت له الإمامة للناس أجمعين ،

فكان أهلاً لقيادتهم والحكم بينهم بالعدل يدعو الناس إلى عبادة الله الواحد ، فهو رب

الخلق جميعاً ، وكل إنسان محاسب بما يعمل وسيلقى الله تعالى يوم القيامة فيقرره بكل شيء ، ثم يلقى جزاءه .

وعلى هذا أكد مولانا سبحانه العدلَ في الحكم في الآية 58 من سورة النساء " وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " ويدخل في معنى الناسِ المسلمُ وغيره ، فالعدل أساس الملك وهو ما دعا إليه الولى سبحانه ، فلا يُحابى مسلمٌ ولا قريبٌ ولا صديق ، فالحق أحق أن يُتّبع ، وهذا

نفهمه من قوله تعالى في الآية /8 /من سورة المائدة " اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله .." وميزان الحكم بل الحياة كلها " التقوى " وقوله تعالى " ولا يجرمنّكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا " والمسلم وحده الذي يسعى لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، ولو خالف هواه فحكم لمن يكرههم ويبغضهم ويعاديهم إن إرضاء الله تعالى وإقامة الحق هو الهدف المنشود . وتاريخ المسلمين في حربهم وسلمهم يشهد لهم بذلك .

الفدية والمثيل : يوم القيامة المنعطفُ الخطير الذي نسأل الله تعالى أن ينجينا فيه من غضبه والنار ، هنالك تلهج ألسنة الناس كلهم مؤمنهم وكافرهم بالدعاء ، فالخوف من العذاب والوقوع في جهنم ديدن المخلوقات كلها – نسأل الله العفو والعافية – أما الكفار والمنافقون فلا خلاص لهم مما يحذرون ، ولا مناص من الخلود في النار وهناك " يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومِئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التي تُؤويه ، ومَن في الأرض جميعاً ثم يُنجيه ، كلاّ إنها لظىً ... " ولن تقبل من الكافر فدية – وهو في ذلك الوقت لا يملك شيئاً فقد ترك كل ما كان يملكه في الدنيا واقتسمه الورثة ، وقد صور الله تعالى هلع الكفار من النار والرغبة في النجاة منها في آيات عدة نذكر منها الآيتين 36- 37 من سورة المائدة " إن الذين كفروا لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقبّل منهم ، ولهم عذاب عظيم ، يريدون أن يخرجوا من النار ، وما هم بخارجين منها ، ولهم عذاب مقيم " و ذكر العدل بمعنى الفدية والمثيل فقوله تعالى – الآية 48- في سورة البقرة " واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ، ولا يُقبل منها شفاعة ، ولا يُؤخذ منها عدل ، ولا هم يُنصرون " ألا ترى أن العدل الفدية والمثيل واضحان تماماً في هذه الآية ، ألا أقول لمن تزوج أخت زوجتي : (عديلي) ؟ فهو عند الحمو مثيلي . يقول الله تعالى في عدم قبول الفداء من الكافر " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّار فَلَنْ يُقْبَل مِنْ أَحَدهمْ مِلْء الأَرْض ذَهَبًا وَلَوْ اِفْتَدَى بِهِ " وقال في الآية 70 من سورة الأنعام " وَإِنْ تَعْدِل كُلّ عَدْل لا يُؤْخَذ مِنْهَا " على فرض أن معه ما يفتدي به نفسه فهو أمر مرفوض فقد سبق السيف العذل .

الانحراف عن الحق : نقول : عدل فيه : حكم بالحق ، وعدل عن الحق : تجاوزه فلم يحكم به . وهو الميل إلى الباطل . مثاله قول الله تعالى في فاتحة سورة الأنعام " ثم الذين كفروا بربهم يعدلون " فجَعَلُوا لَه شَرِيكًا وَعدلاً ، واتخذوا لَه صَاحِبَة وَوَلَدًا تَعَالَى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا . قال القرطبي رحمه الله تعالى : ثم الذين كفروا يَجْعَلُونَ لله عدلاً وشريكاً وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ هَذِهِ الأشياء وحده قَالَ اِبن عَطِيَّة : فـ " ثُمَّ " دالّة عَلَى قبح فعل الكافرين لأن المعنى : أَنَّ خَلْقه السَّمَوَات والأرض قَدْ تَقَرَّرَ وَآيَاته قَدْ سَطَعَتْ وَإِنْعَامه بِذَلِكَ قَدْ تَبَيَّنَ ، ثُمَّ بَعْد ذَلِكَ كله عَدَلُوا بِرَبِّهِمْ فَهَذَا كَمَا تَقُول : يَا فلان؛ أَعْطَيْتُك وَأَكْرَمْتُك وَأَحْسَنْت إِلَيْك ، ثُمَّ تَشْتُمنِي ؟! وَلَوْ وَقَعَ الْعَطْف بالواو فِي هَذَا وَنَحْوه لَمْ يَلْزَم التَّوْبِيخ كَلُزُومِهِ بـ" ثمّ " وَاَللَّه أَعْلَم .. ويقول تعالى للمنحرفين عن الحق الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى في الآية 60 من سورة النمل " أإله مع الله بل هم قوم يعدلون " فيجعلون له عِدلاً ونظيراً وهو وحده خَلَقَ تِلْكَ السَّمَوَات فِي اِرْتِفَاعهَا وَصَفَائِهَا وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنْ الْكَوَاكِب النَّيِّرَة وَالنُّجُوم الزَّاهِرَة والأفلاك الدائرة وَخَلَقَ الأرض على هيئتها وَ جَعَلَ فِيهَا مِنْ الْجِبَال وَالسُّهُول وَالْفَيَافِي وَالْقِفَار وَالزُّرُوع وَالأَشْجَار وَالثِّمَار وَالْبِحَار وَالْحَيَوَان عَلَى اختلاف الأصناف والأشكال وبث فيها المناظر الخلابة والأشكال البديعة " مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرهَا " ولا يقدر على ذ لك إلاالْخَالِق الرَّازِق الْمُسْتَقِلّ بِذَلِكَ ، الْمُتَفَرِّد بِهِ دُون مَا سِوَاهُ مِنَ الأنداد كَمَا اِعْتَرَفَ بِهِ المشركون أنفسُهم ، فقد قَالَ تَعَالَى " وَلَئِنْ سَأَلْتهمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّه " " وَلَئِنْ سَأَلْتهمْ مَنْ نَزَّلَ مِنْ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأرض مِنْ بَعْد مَوْتهَا لَيَقُولُنَّ اللَّه " فهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ الْفَاعِل لِجَمِيعِ ذلك وحده لا شَرِيك لَهُ ، ثم هم يعبدون مَعَهُ غَيْره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق ، وَإِنَّمَا يَسْتَحِقّ أَن يُفْرَد بِالْعِبَادَةِ مَنْ هو الْمُتَفَرِّد بِالْخَلْقِ وَالرِّزْق ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : " أَإِلَه مَعَ اللَّه " يُعْبَد وَقَدْ تَبَيَّنَ لكل ذِي لُبّ أَنَّه الخالق الرازق ؟ .

البديل : نجد في الآية 95 من سورة المائدة عقوبة قتل الصيد في الحج والعمرة " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ۗ

عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ " فمن اصطاد وخالف فعليه عقوبة يفعلها مكفرة عما فعل مناسبة للذنب الذي اقترفه ، فقد يكون هدياً أو أطعاماً لمساكين الحرم أو صدقة تناسب الخطأ الذي ارتكبه ، فكانت كلمة العدل هنا البديل المناسب كي يعلم أنه فعل ما ليس له أن يفعله .

الفهم والعقل : وهذا ما نجده في الآية السابقة التي توضح عقوبة الصائد في الحج والعمرة فالذي يحكم ويقرر حجم العقوبة وبديلها اثنان من أهل الفهم والدراية وأصحاب العقول الراجحة ، وبهذا يكون معنى " عدل " في هذه الآية ما يوضح صفة أهل الحل والعقد . نجد المعنى نفسه في الآية الثانية من سورة الطلاق " فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا " فإذا طلق أحدهم زوجته ، فقاربت العدة على الانتهاء فَأَمْسِكُوهُنَّ" بِأَنْ تُرَاجِعُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ مِنْ غَيْر ضِرَار أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، فاتركوهنّ حَتَّى تنقضي عدتهنّ ولا تُضارّوهنّ بِالْمُرَاجَعَةِ " وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْل مِنْكُمْ " عَلَى الْمُرَاجَعَة أَوْ الْفِرَاق ، وهذان الشاهدان ينبغي أن تتوفر فيهما التقوى والدين ويشهد الناس لهما بذلك .

الضلال

قال الجوهري في صحاحه : الضلال : ضد الرشاد .

وقال ابن منظور في لسان العرب : الضلال والضلالة ضد الهدى والرشاد . ويقول بنو تميم بكسر عين الفعل الماضي : ضلِلت . ويقول أهل نجد بفتحها : ضلَلت . والمضارع لكليهما أضِلّ أبعدنا الله عن الضلالة وجعلنا من أهل الهدى والرشاد .

وردت الكلمة بمشتقاتها في القرآن الكريم أكثر من ثلاث مئة وخمس وسبعين مرة ، تحمل المعنى الأساس الذي ذكرناه قبل قليل .

مثال ذلك وهو الأكثر – لأنه الأصل – قوله تعالى في سورة البقرة " ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل " فماذا بعد الإيمان إلا الكفر والضلال ؟! . وقوله تعالى في سورة القلم " إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى " وفي قوله تعالى في سورة النمل " ومن ضل فقل إنني من المنذرين " فرسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس جميعاً لعبادة رب واحد ، ويبين للناس الطريق القويم ، ويبشرمن آمن بالخير في الدارين وينذر من تنكب الطريق بعذاب الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ونضيف إلى هذا المعنى معاني تدور في هذا الفلك ، وتحمل بالإضافة إليها إشراقات يقتضيها سياق كل آية أو قصة ، فهيا إلى تلك المعاني التي تفتح الآفاق وتفتّق الأذهان ، في رياض لغتنا العربية الغناء .

يقولون : أضللتُ الشيء إذا غيّبتُه ، وأضللت الميت إذا دفنتُه . مثاله في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة السجدة " وقالوا : أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد ؟ " فالكفار يستنكرون العودة يوم القيامة بعد أن تُدفن أجسادهم في الأرض وتُغَيّب فيها ، فتتحلل وتذوب . ونسوا أن الله الخالق يفعل ذلك متى شاء . وعودة الشيء أهون عليه سبحانه . والإنشاء والإعادة أمران سهلان يسيران عليه ، فهو يقول للشيء : كن فيكون .

ومثاله كذلك قوله تعالى في سورة الأنعام : " انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون " فالمشركون يقسمون –كاذبين – أنهم لم يشركوا بالله في الدنيا ، فقد بحثوا يوم المحشر عن آلهتهم ، فلم يجدوها ، لقد غابت عنهم ومُحيتْ آثارها . بل إن العلاقات الحميمة التي كانت تجمع بعضهم ببعض في عبادتهم لأوثانهم وأصنامهم انقلبت عداوة ، ولم يروا أثراً لما كانوا يعبدون . نجد مثاله في سورة الأنعم نفسها في قوله تعالى : " لقد تقطّع بينكم ، وضل عنكم ما كنتم تزعمون " .ونجد في قوله تعالى " .. لا يضل ربي ولا ينسى " من سورة طه أن الله لا يغيب عنه شيء في السموات ولا في الأرض ، يؤكدها قوله تعالى في سورة يونس " ولا يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء " ومتابعة واعية لهذا المعنى يضع بين يدينا الكثير من الآيات .

من معاني الضلال : التيه والانحراف . مثال هذا المعنى قوله تعالى في سورة المائدة " .. وأضلّوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل " فقد انحرفوا وأمالوا عن الحق كثيراً من أتباعم ومن وثق بهم . وفي سورة السجدة ينفي الله تعالى الغواية والانحراف عن نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم " والنجم إذا هوى ؛ ما ضل صاحبكم وما غوى " والدليل على ذلك أن كلامه صواب ، وجبريل بأمر الله يسدد عمله " وما ينطق عن الهوى ، إنْ هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى " . كما أن الشيطان يُغوي الإنسان ويُميله ويحرفه عن جادة الصواب إن ركن إليه وتبعه. مثال ذلك قوله تعالى في سورة يس " ولقد أضلّ منكم جِبِلاّ كثيراص ن أفلم تكونوا تعقلون ؟" .

وتعني كلمة الضلال بمعنى الوقوع في المتاهة والخطأ ،كقوله تعالى ينعى على الكفار تخبطهم في حديثهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ومحاولة تيئيسه من الدعوة ، والتضييق عليه ليتركها ، فوقعوا في أخطاء كبيرة : " انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا ، فلا يستطيعون سبيلاً " .

وهؤلاء الذين خالفوا طريقة أبيهم الصالح في العطف على المساكين والإحسان إليهم – في سورة القلم – فقرروا بعد موته ان يمنعوهم الخير الذي كان فمرر الله عليها بعض جنوده فجعلوا الحديقة يباباً ، فلما ذهبوا إليها مصبحين لم يعرفوها وظنوا أنهم – أولاً أخطأوا الطريق ، ثم عرفوا

بعد التأكد أنهم أخطأوا التصرف ، فندموا وتابوا إلى الله وعاهدوه سبحانه إن عفا عنهم وغفر لهم أن يكونوا أتقياء كراماً لا يقطعون أحداً من رفدهم " فلما رأوها قالوا إنا لضالون ، بل نحن محرومون " .

كذلك نرى المجرمين يسخرون من ضعفاء المسلمين ويأبون أن يساعدوهم ، ويستهزئون من دعوة المصلحين لهم أن يساعدوا فقراءهم وضعفاءهم " وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قالوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟! إن أنتم إلا في ضلال مبين " فما دام المستضعفون بمنزلة الأغنياء عند الله فليُغنِهم هو سبحانه ، والضعيف – بزعمهم- ليس عند الله كالغني القادر . ولهذا قالوا لنوح عليه السلام ومن جاء بعده من الأنبياء إنهم لن يؤمنوا بدعوته مادام الفقراء البسطاء معه " قالوا : أنؤمن لك ، واتبعك الأرذلون؟! "

من معاني الضلال النسيان : مثاله قول الله تعالى في آية الدّين من سورة البقرة حين يذكر شهادة المرأتين " .. ان تَضِلّ إحداهما ، فتُذكر إحداهما الأخرى " ولا يكون التذكير إلا للناسي .

ومن معاني الضلال الخسران وإبطال الثواب : ومن أمثلة ذلك المعنى قوله تعالى في سورة سيدنا محمد " والذين كفروا فتعساً لهم ، وأضل أعمالهم " فالكافر ليس له في الآخرة نصيب ، وكل عمل لا يقوم على أساس الإيمان ليس لصاحبه خلاق في الأمن والنجاح يوم القيامة ، وأضل أعمالهم ، أحبطها فخسروها . وعلى هذا نرى في قوله تعالى في السورة نفسها : " والذين قتلوا في سبيل الله فلن يُضل أعمالهم ، سيهديهم ويصلح بالهم .. " فقوله : لن يضل أعمالهم : لن يحبطها ، ولن يبطل ثوابها ، بل يصلح بالهم فيزيدهم من فضله وكرمه .

ومثال ذلك قوله تعالى في سورة غافر " وما كيد الكافرين إلا في ضلال " وقوله سبحانه في السورة نفسها " وما دعاء الكافرين إلا في ضلال " فمكر الكافر وكيده في الدنيا عليه وليس له ، ودعاؤه في في الآخرة لا يُقبل ، إنه لا ينجو هناك إلا المؤمن الموحّد.

ونرى معنى الإبطال والتضييع في قوله تعالى في سورة الفيل " ألم يجعل كيدهم في تضليل " فهذا أبرهة دفع جيشه لهدم الكعبة وجاء مصمماً على ذلك ، فتصدت له ولجيشه جماعات الطير تحمل في قوادمها وأفواهها سلاح الاستئصال ، فدمّرت جيشه وأهلكته .

ويأتي الضلال بمعنى العفلة والجهل بالشيء ، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة يبحث عن الحقيقة ، فهداه الله إليها بعد غفلة عنها وجهل بها ، هذا ما نجده في قوله تعالى في سورة الضحى " ووجدك ضالاً فهدى " ، إلم يقل له في آية توضح المراد من ذلك " وإن كنت من قبله لمن الغافلين ؟ " فالضلال هنا الجهل بالشيء والغفلة عنه .ولما اتهم فرعون سيدنا موسى بالكفر حين قتل القبطي ، فقال له " وفعلت فَعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين " رد عليه موسى نافياً الكفر ومثبتاً الجهل والغفلة إذ ذاك " فعلتها إذاً وأنا من الضالين " لم يكن رسولاً بعد ، وكان غافلاً عن أمرالرسالة .

وحين ذكر يعقوب عليه السلام ابنه يوسف وابيضت عيناه من الحزن ، فهو كظيم قال له أبناؤه مستنكرين ذلك " تالله إنك لفي ضلالك القديم " وقالوا في آية أخرى معرّضين بحب أبيهم يوسف وأخاه بنيامين " إن أبانا لفي ضلال مبين " وكيف يكون الضلال لنبي سوى التماهي في حب الولد الصغير وشعور الكبار أن أباهم لا يوليهم انتباهه كما ينبغي !! غنهم يعرفونه نبياً ولا يقصدون بالضلال ذلك المعنى المعاكس للهدى والرشاد .

وقد يأتي الضلال بمعنى الهلاك . مثال ذلك قوله تعالى " إن المجرمين في ضلال وسُعُر" قال القرطبي إن الضلال هنا الهلاك لمساوقته كلمة " سُعُر "

وفي قوله تعالى في سورة الإسراء ، وقد جاءت الآية نفسها دون تغيير في سورة يونس " من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها " ومعنى يضل عليها يهلكها ، ويدخلها عذاب جهنم .

وفي قوله تعالى في سورة النساء " يبين الله لكم أن تضلوا " نجد معنى الهلاك واضحاً . فمن لم يتبع البينة ويعمل بها هلك . وكذلك بجده في قوله تعالى " ... ضل سعيهم في الحياة الدنيا " فخاب وهلك .

بقي أن نقول : إن الأصنام لا تضل الناس لأنها لا تعي ولا تعقل ، فكيف تضلهم وتبعدهم عن الطريق القويم في قوله تعالى " ربّ إنّهنّ أضللن كثيراً من الناس .. " إنهم ضلوا وافتُتِنوا بسببها فصارت كأنها هي التي أضلتهم .

سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ضوالّ الإبل ، فنهاه عن أخذها ، وحذّره النار إن تعرّض لها ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : " مالك ولها ، معها حِداؤها وسقاؤها ، ترد الماء ، وتأكل الشجر " أراد صلى الله عليه وسلم أنها بعيدة المذهب في الأرض طويلة الظمأ ، ترد الماء والرعي دون راع يحفظها ، فلا تتعرّض لها ، ودعها حتى يأتيها ربها .

(النظر)

نجدُ في مختار الصحاح قوله : النَّظَر والنَّظَرَانُ بفتحتين : تَأَمُّل الشَّيْءِ بالعَيْن. وقد نَظَر إلى الشَّيْءِ... والنَّظَر أيضاً : الانتِظار يقال : نَظَره يَنْظُره بالضم نَظَراً. ويقال للعَين النَّاظِرة. والنَّاظِرُ الحافِظُ. والنَّظِرة بكسر الظاء التأخير. وأَنْظَرَه أَخَّرَه. واسْتَنْظَرَه اسْتَمْهَلَه. و تَنَظّره تَنَظُّراً انْتَظَره في مُهْلَةٍ.

وفي لسان العرب قوله : النَّظَر حِسُّ العين . نَظَره يَنْظُره نَظَراً ومَنْظَراً ومَنْظَرة ونَظَر إليه وتقول نَظَرت إلى كذا وكذا مِنْ نَظَر العين ونَظَر القلب .

ويقول القائل للمؤمَّل يرجوه إنما نَنْظُر إلى الله ثم إليك أَي إنما أَتَوَقَّع فضل الله ثم فَضْلك .

والنَّظَر تأَمُّل الشيء بالعين ، وقوله عز وجل وأَغرقنا آل فرعون وأَنتم تَنظُرون قال أَبو إِسحق قيل معناه وأَنتم تَرَوْنَهم يغرَقون . والنَّظَرُ الانتظار ويقال نَظَرْتُ فلاناً وانْتَظَرْتُه بمعنى .وانْظُرُونا نَقْتَبِسْ من نُوركم : انْتَظِرُونا .

وفي القرآن من هذه المعاني وغيرها أو مما يُشتق منها الوفر الكثير ، فهلم إلى القرآن .

من ذلك :

الرؤية : في قوله تعالى : " وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة " وهي نظرة حب وإجلال وتعظيم . ومن الرؤية قوله تعالى في وصف البقرة " إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين " وفي المعنى نفسه في سورة الأعراف " ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين " ومن الرؤية قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام في سورة الأعراف " قال رب أرني أنظر إليك ، قال لن تراني ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ..." .

نظرة الخوف : في قوله تعالى في سورة التوبة : " وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ثم انصرفوا .. " فهم يخافون أن تنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم سورة تنبئه بما في قلوب المنافقين فتفضحهم ، وتفضح نفاقهم . وكذلك في سورة الأحزاب " فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم .. " نظر الخائف المستسلم . وفي سورة الشورى يصور

القرآن خوفهم من النار " ينظرون من طرف خفيّ " ونجد خوف المنافقين من القتال في سورة محمد صلى الله عليه وسلم " ... رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت ..." .

نظرة الاستسلام والخضوع : في قوله تعالى في سورة الصافات " فإنما هي زجرة واحدة ، فإذا هم ينظرون " وفي قوله تعالى في البقرة " فأخذتكم الصاعقة ، وأنتم تنظرون " ونرى الاستسلام واضحاً في سورة الواقعة " فلولا إذا بلغت الحلقوم ، وأنتم حينئذ تنظرون " ونجد مع الخوف والفزع الاستسلام حين يرون النار من طرف أعينهم ، ولا يجرؤون على النظر إليها ، ويستسلمون لمصيرهم المرعب الذي يقذفهم في النار بين لحظة وأخرى ، إنها لحظات رهيبة والله رهيبة " وتراهم يُعرضون عليها خاشعين من الذل ، ينظرون من طرف خفيّ " .

نظرة التأمل والتدبر : في قوله تعالى في سورة الصافات يصف نظرة التفكر والتدبر " فنظر نظرة في النجوم ، فقال إني سقيم " وكذلك نجد هذه النظرة في قوله تعالى في سورة الحشر " يا أيها الذين آمنوا ؛ اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد " والعاقل هو الذي يحسب حساب الغد الآتي . ونرى مثاله أيضاً في سورة عبس " فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ..." فمن تأمل وبحث وصل إلى وجود الله ووحدانيته ، وأنه — سبحانه – الآمر الناهي يفعل ما يشاء . كذلك في سورة الطارق " فلينظر الإنسان ممّ خلق؟ خُلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر .. " وهناك دعوات في المسير في الأرض والنظر المتأمل المتفكر في الأعراف ،ويوسف ، والروم ، وفاطر، وغافر ، ومحمد ، تبدأ بقوله : أفلم يسيروا ؟ مثالها في يوسف " أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، ولدار الآخرة خير للذين آمنوا .. " .

نظرة المعاينة : في قوله تعالى في البقرة " فأنجيناكم ، وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون " يرون الأمر ويشاهدونه . ونجد في سورة يونس المعاينة وتقليب الأمر " ثم جعلناكم خلائف في الأرض لننظر كيف تعملون " ونجد المعاينة للأدلة في قوله تعالى يخاطب موسى عليه السلام " ولكن انظر إلى

الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف تراني " وقول سليمان للهدهد حين بعثه برسالته إلى مملكة سبأ وملكتها بلقيس " فألقِهْ إليهم ، ثم تولّ عنهم ، فانظر ماذا يرجعون ؟ " وكذلك نرى المعاينة في قوله تعالى في سورة يونس " قل انظروا ماذا في السموات والأرض " إنها نظرات ولمسات لا يراها إلا القلب السليم .

نظرة التعجب : وغالب التعجب من كفر الكافرين واستكبارهم عن الحق ، مثال ذلك في سورة الإسراء في قوله تعالى " انظر كيف ضربوا لك الأمثال ، فضلوا ، فلا يستطيعون سبيلاً " فالكفار يتهمون النبي صلى الله عليه وسلم تارة بالكهانة وتارة بالسحر وأخرى بالكذب ورابعة بالشعر ، وكلامهم عجيب لا ينبغي أن يصدر عن رجال يعقلون . وفي المائدة تعجب واضح من فسادهم وكفرهم " انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يُؤفكون " والتعجب من ضرب الأمثال مرة أخرى في سورة الفرقان " انظر كيف ضربوا لك الأمثال ، فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً " ثم انظر متعجباً من الاستمرار على ضلالهم بعدما رأوا الآيات في سورة الأنعام " انظر كيف نصرف لهم الآيات ثم هم يصدفون "

نظرة الانتظار : قوله تعالى في سورة الذاريات في نهاية قوم صالح " فعتوا عن أمر ربهم ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون " وَذَلِكَ أَنَّهُم اِنْتَظَرُوا العَذَاب ثلاثة أَيَّام فَجَاءَهُمْ فِي صَبِيحَة الْيَوم الرَّابِع بُكرَةَ النَّهَار. وكان انتظارهم تحدياً ، فنالوا عقاباً يستحقونه على كفرهم وعنادهم . ونجد هذا المعنى في قوله تعالى في سورة البقرة " يا أيها الذين آمنوا ؛ لا تقولوا راعنا ، وقولوا انظرنا ، واسمعوا .." بعض المفسرين قالوا هي من الرؤية والانتظار والتأني كذلك . وكقوله في سورة الحديد على لسان المنافقين يخاطبون المؤمنين " انظرونا نقتبس من نوركم " ولا نور في ذلك اليوم إلا للمؤمنين ، ونرى معنى الانتظار في قوله تعالى في سورة فاطر " فهل ينظرون إلا سنة الأولين " وهي عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره . ومن معنى الانتظار قوله تعالى في سورة الأحزاب " يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه " لا دخول

إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم إلا إجابة لدعوة أو وليمة ، ولا بأس أن ينتظر المسلمون في بيته نضج الطعام واستواءه .....

ثم يأكلون وينصرفون غير منتظرين ، ولا يتأخرون .

نظرة الاختبار كقوله تعالى في سورة النمل الآية 27 " سننظر أصدقتَ أم كنت من الكاذبين " فهو يختبر الهدهد حين جاءه بخبر بلقيس وقومها . وكذلك نجد معنى الاختبار في السورة نفسها الآية 41 " قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون " وكان قد سألها عن عرشها بعد أن أراها إياه وقد جاء به مَن عنده علم من الكتاب يختبر ذاكرتها وذكاءها ... ونجد اختبار الصبر والإيمان لبني إسرائيل على لسان موسى " قال عسى ربكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون " .

نظرة الدهشة والانبهار : نجدها في قوله تعالى في سورة الزمر في قوله تعالى يصف المشركين حين يُنفخ في الصور " ثم نُفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون " فيعلمون الحقيقة – إذ ذاك – ويندمون حين لا ينفع الندم . ونجد المعنى نفسه في سورة الصافات في قوله تعالى " فإنما هي زجرة واحدة ، فإذا هم قيام ينظرون " وقد عقدت المفاجأة ألسنتهم ، وعلموا أنهم خسروا أنفسهم إذ كذّبوا بآيات الله .

نظرة التهديد والتوبيخ : من أمثلة ذلك قوله تعالى يوبخ الكافرين الصادّين عن سبيل الله في سورة المائدة " انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنّى يُؤفكون " وقوله تعالى في سورة الأنعام " انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون " وقوله تعالى في السورة نفسها " انظر كيف نصرّف الآيات ثم هم يصدفون " فهناك بيان للآيات وتصريف واضح للأمور ، والكافرون صادون عن سبيل الله كافرون برسالاته . وأشد من ذلك أن الله تعالى يغضب على الكافرين غضباً شديداً والدليل على هذا في سورة آل عمران أن الجليل يخزيهم " ولا يكلمهم ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة " .

نظرة التأخير في قوله تعالى في سورة الأحزاب " يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه " فلا تتأخروا في بيت النبي صلى الله عليه وسلم بعد الأكل . ومن التأخير قوله تعالى في إنظار المعسر – الآية من سورة البقرة – " وإن كان ذو عسرة فنَظِرة إلى ميسرة " فيؤخر الدائن المدين المعسر في السداد إلى وقت اليسر والمقدرة .

نظرة البهجة والسرور في قوله تعالى في الآية 23 من سورة المطففين يصف وجوه المؤمين السعداء في الجنة " إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نضرة النعيم " وانظر معي إلى المؤمنين يتمتعون ويبتهجون في جنة الرحمن في الآية 35 من السورة نفسها " ... من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينظرون "

نظرة المعرفة واليقين بالأمر : في قوله تعالى في سورة النبأ " يوم ينظر المرء ما قدمت يداه " ويعلم علم اليقين أنه هالك لا محالة . ومن نظرة العلم واليقين كذلك قوله تعالى في سورة البقرة " هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل الغمام " والمعنى نفسه نجده في سورة الأنعام في قوله تعالى " هل ينظرون إلا أن يأتيهم الملائكة أو يأتي ربك " فيعلمون أن تكذيبهم للرسل وصدهم عن دعوة الحق قد أرداهم في جهنم ، فلا نجاة ولا محيص عن ذلك ... ونجد نظرة العلم واليقين في سورة الأنفال ، فبعض المسلمين لا يرغبون بالقتال ويجادلون في ذلك ، فعبر القرآن عن هذا بقوله تعالى "كأنما يُساقون إلى الموت ، وهم ينظرون " ولم يكن هذا لا ئقاً بهم .

نظرة الاحتقار للكفر وأهله في قول موسى عليه السلام للسامري في سورة طه " وانظر إلى إلهك الذي ظلْتَ عليه عاكفاً لنحرّقنه ثم لننسفنّه في اليمّ نسفاً " وتصور درجة الاحتقار بتحريق الإله المزعوم ونسف رماده في البحر أمام أعين عابديه . ونجد معنى الاحتقارنفسه في قوله تعالى يصف إغراق قوم فرعون بكلمة (النبْذ) في قوله تعالى في سورة القصص " فنبذناهم في اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين " .

وأخيراً نظرة الاستشارة والاستئمار بين إبراهيم وولده إسماعيل حين أمره الله تعالى في المنام بذبحه " يا بنيّ إني أرى في المنام أنّي أذبحك ، فانظر ماذا ترى؟ " إنها كلمة قالها لإعلامه فقط ، ولن يأخذ برأيه إن خالف ، فأمر الله لا بد منه .

(بلغ ومشتقاتها)

يقول صاحب الصحاح في معنى بلغ

بَلَغْتَ المكان بُلوغاً: وصلت إليه، وكذلك إذا شارفتَ عليه. ومنه قوله تعالى: " فإذا بلَغْنَ أَجَلَهُنَّ " أي قارَبْنَهُ. وبَلَغَ الغلامُ: أدرك. والإِبْلاغُ: الإيصالُ، وكذلك التَبْليغُ، والاسمُ منه البَلاغُ. والبَلاغُ أيضاً: الكفايةُ ، وبَلَّغْتُ الرسالةَ أوصلتها. وبَلَّغَ الفارسُ، إذا مَدَّ يدَه بعنان فرسه ليزيد في جَرْيه. وشيءٌ بالِغٌ، أي جيّدٌ. وقد بَلَغَ في الجودة مَبْلَغاً. ويقال: أمرُ اللهِ بَلْغٌ بفتح الباء، أي بالِغٌ من قوله تعالى: " إنّ اللهَ بالِغٌ أَمْرُهُ " . وقولهم: أَحْمَقُ بِلْغٌ بكسر الباء، أي هو مع حماقته يَبْلُغُ ما يريد.

والبَلاغَةُ: الفصاحةُ. وبَلُغَ الرجلُ بضم العين ، أي صار بَلِيغاً. والبَلاغاتُ، كالوشاياتِ.

والبِـُلَغينُ: الداهية. وفي الحديث أن عائشة قالت لعليّ رضي الله عنهما حين أُخِذَتْ: " بَلَغْتَ مِنَّا البِـُلَغينَ " . وبالَغَ فلانٌ في أمري، إذا لم يقصِّر فيه. والبُلْغَةُ:ما يُتَبَلَّغُ به من العَيش. وتَبَلَّغَ بكذا، أي اكتفَى به. وَتَبَلَّغَتْ به العِلَّةُ أي اشتدّتْ. والبالِغاءُ: الأكارعُ في لغة أهل المدينة.

وقد وردت كلمة بلغ ومشتقاتها في القرآن الكريم قريب الثمانين مرة بالمعاني التي ذكرناها وبمعان أخرى لا تبعد عنها ، وهي :

1- الدعوة إلى الله تعالى كقوله سبحانه في سورة الأعراف " أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم " وقوله في السورة نفسها " أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين " ففي الآية الأولى يستمر في تقديم النصح لهم ، فهذا دأب المصلحين الذين يريدون الخير للناس جميعا ، وفي الآية الثانية يعلل ما يفعله سوى الناصح المحب الأمين في تبليغ الرسالة . .. ونرى الدعوة إلى الله في سورة المائدة في قوله " فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين " ثم يقول في السورة نفسها " ما على الرسول إلا البلاغ " ففي الآية الأولى يستعمل أسلوب القصر – إنما _ خشية أن يشكوا فيتولّوا ، وفي الثانية يستعمل أسلوب الاستثناء ليثبت عمل الرسل في البشرية . وجاءت الكلمة بهذا المعنى في القرآن كثيراً .

2- قد تأتي بمعنى شبّ وصار رجلاً كقوله تعالى يحكي عن يوسف عليه السلام في سورته " ولما بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً " وكقوله تعالى يحكي عن موسى عليه السلام في سورة القصص " ولما بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكماً وعلماً " . ونجد الاستواء في الحديث عن موسى لأنه سيتحمل الصعاب غريباً مطارداً وسيعود برسالة ثقيلة إلى فرعون الظالم ، فلا بد أن يكون قوياً متمرساً . وكقوله تعالى في سورة النور " وإذا بلغ الأطفال منكم الحُلُم فليستأذنوا .." والحُلم أول مرحلة الشباب وبناء الأسرة ، يعضد هذا قوله تعالى في سورة النساء " حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منه رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ..." وحين يبلغ الرجل النكاح يشعر باستقلاله والرغبة في تحمل المسؤولية . فاليتيم حين يبلغ النكاح لن يعود يتيماً ، وهذا ما نراه واضحاً في قوله تعالى في سورتي الأنعام والإسراء " ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده " فإن شب وبلغ أشده كان أهلاً لتحمل مسؤولية أسرته التي نشأ فيها وليكوّن أسرة تخصه . والرجل الصالح في سورة الكهف أقام الجدار بأمر الله تعالى " فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك "

3- وقد تكون بمعنى الكمال الإنساني كقوله تعالى في سورة الأحقاف يحكي قصة المؤمن السويّ الذي بلغ سن الأربعين " ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً ... حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال : ربي؛ أوزعني أن أشكر نعمتك عليّ وعلى والديّ ... " وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم في سن الأربعين وهو سن الكمال البشري . والدعاء نفسه دعا به سليمان عليه السلام حين سمع قول النملة تحذر قومها من جيشه في سورة النمل " .. رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين " . تأتي الكلمة كذلك بمعنى التمام والكمال في قوله تعالى في سورة الأنعام " قل فلله الحُجّة البالغة " الكاملة التامة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

4- وتأتي هذه الكلمة بمعنى الهرم والضعف كقوله تعالى في سورة آل عمران حكاية على لسان زكريا عليه السلام " قال ربّ أنّى يكون لي غلام ، وقد بلغنيَ الكبر وامرأتي عاقر ؟! " فهو

يستغرب أن تحمل زوجته منه وهي عقيم ، وقد صارت عجوزاً وسبقها هو بالضعف وكبر السنّ . والمعنى نفسه نجده في سورة مريم " وكانت امرأتي عاقراً ، وقد بلغتُ من الكبر عِتِيّاً " . ونجد هذا المعنى في سورة الإسراء يرشدنا ربنا تبارك وتعالى إلى توقير الوالدين والرحمة بهما " إما يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولاً كريما "

5- وتأتي الكلمة – بلغ- بمعنى التحدي ، مثال ذلك في قوله تعالى في سورة الإسراء منبهاً كل من تكبر وتجبر وتعالى على البشر " ولا تمش في الأرض مرحاً ؛ إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً " فعلام هذه الغطرسة وهذا التفاخر الكاذب؟! ونجد ذلك في قوله تعالى في سورة الرعد " والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال " فإذا كانت الآلهة المزعومة لا تنفع غيرها بله أن تنفع نفسها فلم يعبدها هؤلاء المغفّلون ؟.. ونجد التهديد ظاهراً في الإنذار الدعوي في كثير من الآيات نذكر بعضها في قوله تعالى في سورة آل عمران " وإن تولّوا فإنما عليك البلاغ " وفي سورة لإبراهيم عليه السلام " هذا بلاغ للناس ، ولِيُنذروا به " وفي سورة الشورى " فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ، إن عليك إلا البلاغ " فمن لم يستجب للدعوة فقد أساء لنفسه ، وقد أعذر من أنذر .ونجد ذلك واضحاً في قوله تعالى في سورة النساء يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يهدد الكافرين " فأعرض عنهم وعظهم ، وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً " . ونجد ذلك في التقرير الإلهي الذي يجزي المؤمن المتوكل عليه خير الجزاء ، في سورة الطلاق " ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره " ومن يقف أمام أمر الله وإرادته وقوته – سبحانه – ؟

6- وتأتي بمعنى تمام الأمر وانتهائه ، والتبليغ للدعوة يعني لإتمامها كما أمر ربنا ، وهذا نجده كثيراً في القرآن . من أمثلته قوله تعالى في سورة الأحزاب يمدح الرسل وحاملي الدعوة إلى الناس " الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ، ولا يخشون أحداً إلا الله " . ومن أمثلة انتهاء الأمر الحديث عن عدة النساء ، مثاله قوله تعالى في سورة البقرة " ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله " فإذا انتهت عدة الأرملة يبدأ نكاحها من رجل آخر ، ونرى هذا في الطلاق

تحكيه بداية سورة الطلاق " فإذا بلغن أجلهنّ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف " أما أن يكون الأمر بيد الرجل كما يحب دون رابط ، يعذب زوجته بطلاق ثم إعادة إلى ما شاء فلا يجوز هذا الظلم في دين الله . ونرى تمام الأمر وانتهاءه في حلق الرؤوس في الحج بعد بلوغ الهدي مكان الأضحية به ، يقول الله تعالى في سورة البقرة " ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدْيُ محِلّه "

7- وتأتي الكلمة بلغ بمعنى الوصول إلى الهدف ، ففي قصة ذي القرنين في سورة الكهف نجده يبلغ مغرب الشمس ، ومطلعها ، وبين السدين . ونرى قبل هذه الآيات سيدنا موسى يصر على بلوغ مجمع البحرين ، وننبه أن البلوغ أمتن وأوثق من الوصول ، فالبلوغ يعني الثبات والامتزاج والرسوخ . أما الوصول فلا يعني ذلك ، والدليل على ذلك أن القرآن يستعمل البلوغ وليس الوصول كقوله تعالى في سورة الأحقاف " بلاغ ... فهل يُهلك إلا القوم الفاسقون؟! " ولم يقل : وصول . وعلى ذلك فقِسْ . وفرعون يريد أن يرى الله ، قالها ساخراً من موسى عليه السلام فأشار إلى وزيره هامان يقول له مستهزئاً بموسى " .. ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطّلع إلى إله موسى ..." والأمثلة في هذا المعنى كثيرة في القرآن .

8- وقد تعني الكلمةُ الخوفَ . ومثاله قوله تعالى في سورة الأحزاب يصف إحاطة المشركين واليهود بالمسلمين والخوف الذي تسرب بقوة بادئ الأمر إلى قلوب المسلمين " وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر " ولا تبلغ القلوب الحناجر إلا من شدة الخوف .

9- وقد تعني كلمة (بلغ) الأمنَ في قوله تعالى في سورة التوبة يعلّم المسلمين أن يبذلوا الجوار لمن يدعونه ، ثم يبلغوه مكاناً آمناً " وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه " .

10 – وقد تأتي بمعنى الشورى غير الملزمة ، فقد أمر الله تعالى إبراهيم في المنام أن يذبح ابنه ، فإبراهيم يخبرولده بذلك ولا يستأمره ، وإن سأله " فانظر ماذا ترى " فهو يعتقد أن الولد شديد الإيمان ، وسوف يريح أباه حين يذعن لذلك . يقول له في سورة الصافات بعد أن بلغ معه

السعيَ " يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ..." والحقيقة أن هذا الموقف صعب لا يرقى إليه إلا الخُلّصُ من الكرام ، وعلى هذا استحق إبراهيم عليه السلام أن يكون خليل الله .

11- وقد تأتي كلمة (بلغ)بمعنى النقص والإخلاف ، نجد مثال ذلك في قوله تعالى في سورة المائدة حين يأمر الله تعالى نبيه الكريم أن يبلغ رسالته إلى البشرية " يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته ، والله يعصمك من الناس " وقد بلّغ الحبيب المصطفى هذه الرسالة السماوية على أتم وجه وأكمل صورة فاستحق إكرام الله تعالى له صلى الله عليه وسلم وحشرنا في زمرته . ونرى النقص في قوله تعالى في سورة غافر " إنْ في صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه " فلم يصلوا هدفهم ، وخاب مسعاهم .

ولا شك أن في هذه الكلمة ومشتقاتها العديدَ مما قصر الفهم عن إدراكه ، نسأل الله تعالى أن يعلمنا ما يزيدنا علماً لنكون من أهل القرآن وحافظيه .

الظنّ

في القاموس المحيط : الظَّنُّ التَّرَدُّدُ الراجِحُ بين طَرَفَي الاعْتِقَادِ الغيرِ الجازِمِ ، جمعه: ظُنونٌ وأظانينُ، وقد يوضَعُ مَوْضِعَ العِلْمِ. والظِّنَّةُ، بالكسر التُّهَمَةُ جمعها (تِهم) كعِنَبٍ. والظَّنِينُ المتَّهَمُ. وأظَنَّهُ اتَّهَمَهُ. وأظْنَنْتُه عَرَّضْتُهُ للتُّهَمَةِ.

وفي لسان العرب : الظَّنُّ : شك ويقين إلاَّ أَنه ليس بيقينِ عِيانٍ إنما هو يقينُ تَدَبُّرٍ فأَما يقين العِيَانِ فلا يقال فيه إلاَّ علم ، وفي الحديث "إياكم والظَّنَّ فإنَّ الظَّنّ أَكذبُ الحديث " أَراد الشكَّ يَعْرِضُ لك في الشيء فتحققه وتحكم به ، وقيل أَراد إياكم وسوء الظَّن وتحقيقَه دون مبادي الظُّنُون التي لا تُمْلَكُ، وخواطر القلوب التي لا تُدْفع . ومنه الحديث " وإذا ظَنَنْتَ فلا تُحَقِّقْ " قال وقد يجيء الظَّن بمعنى العلم وفي حديث أُسَيْد بن حُضَيْر " وظَنَنَّا أَنْ لم يَجُدْ عليهما " : أَي عَلِمْنا.

وفي آيات القرآن الكريم معان للظنّ دقيقة تجلّي كثيراً من جليل اللّفتات البيانية الرائعة ، منها :

1- الاعتقاد التام : مثاله في قوله تعالى في سورة الأنبياء يصور ما فعله يونس عليه السلام حين أنذر قومه ثلاثاً " وذا النون إذ ذهب مغاضباً ، فظنّ أن لن نقدِر عليه .. " ومضى مغاضباً لِقَوْمِهِ ، فاعتقد أن الله تعالى لن يضَيّق عَلَيْهِ فِي بَطْن الْحُوت . وهذا من جليل الإيمان بحفظ الله تعالى له . ومثله : قصة داود في سورة (ص) " وظنّ داود أنما فتنّاه ، فاستغفر ربه ، وخر راكعاً ، وأناب " وذلك حين جاءته الملائكة بأمر ربهم يختبرونه في طريقة الحكم بين المتخاصمين ، فحكم للأول دون أن يستمع لحجة الخصم الثاني ، وكان رئيسهم قد وصّاه بالحكم السديد ، فلا يشطط " فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا

إلى سواء الصراط " . فعلم أنه أخطأ ، فسجد لله يستغفره ويُنيب إليه سبحانه . ومثاله – في سورة الأعراف – رفعُ الجبل فوق اليهود تهديداً لهم أن الجبل سوف يسقط عليهم لو أنهم لم يمتثلوا أمر نبيهم ، ورأوا الموت بأعينهم " وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظُلّة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة ... " فالظن هنا يقين واعتقاد ، فقد كان الجبل فوقهم والموت ماثلاً أمامهم . ويوم القيامة يكون الظن يقيناً ، فالمجرمون يقفون أمام النار التي كذّبوا بها في الدنيا ، وسوف يُطرحون فيها حتماً لا شك فيه ، يقول الله تعالى في سورة الكهف " ورأى المجرمون النار ، فظنّوا أنهم مواقعوها ، ولم يجدوا عنها مصرفاً " . وهذا الرجل المؤمن يحمل كتابه بيمينه يوم القيامة فرحاً مسروراً ، ويعلن على الملأ أنه كان مؤمناً باليوم الآخر ، وأنه أعد نفسه في الدنيا لهذا اليوم " فأما من أوتي كتابه بيمينه ، فيقول : هاؤم اقرؤوا كتابيه ، إني ظننت أني ملاق حسابيه " فكان الثواب رائعاً : إنه النجاة من النار ودخول الجنة ، والخلود فيها " فهو في عيشة راضية ، في جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية " والأمثلة كثيرة في هذا المعنى تتوارد باطّراد واضح .

2–الاعتقاد الخاطئ : ونقصد بذلك أن الكثير يعتقدون أمراً ما وينافحون عنه ، وهو غير ذلك . مثاله في القرآن كثير ، من ذلك قوله تعالى في سورة فصّلت حين يشهد على الكافر سمعه وبصره وجلدُه " ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ، فأصبحتم من الخاسرين " فهم يعتقدون غير الحقيقة ، فوقعوا في شر اعتقادهم وسوء تقديرهم . ومثاله كذلك في سورة يونس ينعى على الكافرين سوء اعتقادهم الذي لا ينفعهم حين يجِد الجِد . " وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لا يُغني من الحق شيئاً " ثم نرى الويل والثبور وعظائم الأمور في سورة (ص) – في تهديد القرآن للذين يعتقدون أن الحياة وُجدت دون هدف – فالنار مأوى من يعتقد ذلك " وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ، ذلك ظنّ الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من

النار " ونرى الاعتقاد الناقص الخاطئ – في سورة القصص – يُردي صاحبه الهلاك فهذا فرعون وجنوده استكبروا وظنوا الدنيا نهاية المطاف ، فأغرقهم الله تعالى في الدنيا ولهم في الآخرة النارمدحورين فيها أذلاء ملعونين : " وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ (41) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42) " ونرى القرآن – في سورة الفتح – يخاطب المنافقين الذين اعتقدوا أن المسلمين بقيادة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لن يعودوا إلى المدينة حين انطلقوا إلى مكة ليعتمروا ، وأن مشركي قريش سوف يبيدونهم ، فكان ظنهم سيئاً واعتقادهم مخطئاً ، نجد توبيخ القرآن لهؤلاء الذين رغبوا أن ينال السوءُ رسولَ الله والمسلمين ووصفهم بالهالكين البائرين " بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وظننتم ظنّ السوء ، وكنتم قوماً بوراً " . وعودة إلى القرآن الكريم ترينا الكثير من هذا الظن ذي العاقبة الرديئة المخزية .

3-تقدير الشيء : وقد يكون الظن بمعنى التقدير والتفكير . مثا ل ذلك في سورة النور حين حض القرآن المسلمين – في فرية ابن سلول التي أطلقها على السيدة عائشة وعلى الصحابي الجليل صفوان بن المعطل إذ نفاها وبرّأهما من الفرية – على محاكمة ما يسمعونه ، هل يرضون تلك التهمة لأنفسهم ؟ وهل يمكن للطاهرة زوج أطهر الخلق أن تقع في المحظور الذي يأباه كل ذي خلق ودين ؟ " لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا هذا إفك مبين " . ونرى هذا المعنى في مراجعة الرجل مطلقته ، أو من أرادا الطلاق لمشاكل حدثت بين الزوجين ، ثم استدركا أمرهما بعد تفكير وتمحيص ، فرأيا أن عودة أحدهما إلى الآخر خير لهما ، يقول الله تعالى في سورة البقرة " فلا جُناح عليهما أن يتراجعا إن ظنّا أن يقيما حدود الله " ونرى الفكرة نفسها في قول يوسف عليه السلام – في سورته – في الآية 42 " وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند

ربك " فعلى الرغم أنه عليه السلام أوتي التأويل فإنه ليس يقيناً ، فلا يعلم الغيب إلا الله تعالى ، هذا إذا اعتبرنا الأمر فراسة وتفكراً وحسن تقدير للأمور وهبَهُ اللهُ تعالى إياها ، أما إذا كانت من باب الوحي والإلهام فإنها تندرج تحت باب الاعتقاد التام – والله أعلم .

4-قد يكون الظن " شكاً " : وله أمثلة عديدة ، منها قوله تعالى في سورة الجاثية على لسان الكفار للمؤمنين في اليوم الآخر والجنة والنار " وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ : مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ، إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا ، وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (32) " قالوها على سبيل الشك والتوهّم ، وأنه لا يصدقون . أما في سورة آل عمران في الحديث عن غزوة أحد فالقرآن يصف حال المنافقين الخائفين من القتال " يظنون بالله غير الحق ظنّ الجاهلية " روى أنس أَنَّ أَبَا طَلْحَة قَالَ : غَشِيَنَا النُّعَاس وَنَحْنُ فِي مَصَافّنَا يَوْم أُحُد ، فَجَعَلَ سَيْفِي يَسْقُط مِنْ يَدِي وَآخُذهُ ،وَيَسْقُط وَآخُذهُ . قَالَ وَالطَّائِفَة الأخرى الْمُنَافِقُونَ لَيْسَ لَهُمْ هَمّ إِلا أَنْفُسهمْ ، أَجْبَن قَوْم وَأَرْعَبهُ وَأَخْذَله لِلْحَقِّ ، إِنَّمَا هُمْ أَهْل شَكّ وَرَيْب فِي اللَّه عَزَّ وَجَلَّ هَكَذَا ، وَهُوَ كَمَا قَالَ اللَّه فَإِنَّ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ يَقُول " ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْد الْغَمّ أَمَنَة نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَة مِنْكُمْ " يَعْنِي أَهْل الإِيمَان وَالْيَقِين وَالثَّبَات وَالتَّوَكُّل الصَّادِق وَهُمْ الْجَازِمُونَ بِأَنَّ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ سَيَنْصُرُ رَسُوله وَيُنْجِز لَهُ مَأْمُوله وَلِهَذَا قَالَ " وَطَائِفَة قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسهمْ " يَعْنِي لا يَغْشَاهُمْ النُّعَاس مِنْ الْقَلِق وَالْجَزَع وَالْخَوْف يظنون بالله ما لا ينبغي . وأكثر أهل الأرض يحيون حياة الشك ويرضون بالوهم عن الحق هذا ما يذكره القرآن الكريم مخاطباً النبي الكريم عليه الصلاة والسلام في سورة الأنعام " وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ (116) " . ومن عاش حياة الوهم ازداد ضلاله ، وكثر افتراؤه .

5-وقد يكون الظن بمعنى :" العلم " ففي سورة يوسف عليه السلام يَذْكُر تَعَالَى أَنَّ نَصْره يَنْزِل عَلَى رُسُله صَلَوَات اللَّه وسلامه عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ عِنْد ضِيق الْحَال وَانْتِظَار الْفَرَج مِنْ اللَّه فِي أَحْوَج الأوقات " حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ

مَنْ نَشَاءُ ۖ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110) " قال المفسرون وعلى رأسهم عائشة رضي الله عنها : إن الرسل حين علموا أَنَّ قَوْمهمْ كَذَّبُوهُمْ ، واِسْتَيْقَنُوا بِذَلِكَ لما طَالَ عَلَيْهِمْ البلاء وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُمْ النَّصْر جَاءَهُمْ نَصْر الله .

6-ويكون الظن بمعنى الأمر الذي لا أصل له مثال ذلك قوله تعالى في سورة النجم " إن يتبعون إلا الظنّ وما تهوى الأنفس " وأردفها بالأصل والعلم اليقين في قوله تعالى " ولقد جاءهم من ربهم الهدى " فما تهوى أنفسهم باطل لا يرتكز على حق ، وما كان من الله ركن ركين . ومثاله كذلك في سورة النجم نفسها قولُه تعالى " إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخرة لَيُسَمُّونَ الملائكة تَسْمِيَةَ الأنثى (27) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (28) " فمن قال لهم إن الملائكة إناث ؟ وهل رأوا ذلك ؟ أم إنهم يخرصون ويدّعون . وقد قال تعالى في سورة الزخرف " وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويُسألون " وتأمل معي في هذه الآية كُلاً من : " الذين ، هم ، عباد ، الضمير في خلقهم " وكلها للمذكر ، فكيف يجعلون الملائكة إناثاً ، والملائكة خلق لا ينطبق عليهم ذلك ؟! سبحان الله .

يوم ، إذ

1-يوم (التصويرية)

ودورها في الغالب الأعمّ نقل المشهد الذي سيحدث في المستقبل إلى الحاضر ، فينتصب حياً أمام الرائي نابضاً بالحياة ، يسمعه ويراه ، ويتقرّاه ويلمسه . وقد ذكر في القرآن الكريم عشرات المرات ، يتبعه الفعل المضارع (جملة المضاف إليها) بأحد نوعيه ؛ المبنيّ للمعلوم أو المبنيّ للمجهول . من ذلك :

قوله تعالى يصف النفختين فنسمعهما ونحسّهما كأن الأمر أمامنا يعرض فلماً سينمائياً " يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة " فإذا الأرض تهتز في زلزالهاالكبير فتستوي جبالها بودياناها " إذا زلزلتِ الأرضُ زلزالها " ويتحقق قول الله تعالى " لا ترى فيها عِوَجاً ولا أمتاً " ثم تأتي الرجفة الثانية في النفخة الثانية ، فيأتي الناس أفواجاً مهطعين إلى الداعي .

وقوله تعالى يصف حال البشر يسمعون نفخة الصور الثانية ، فينطلقون نحو مصدر الصوت مستجيبين " يوم يُنفخ في الصور فتأتون أفواجاً " لا يريم أحدهم ولا يتأخر عن الإجابة ، ولا يلوون على شيء .

وقوله تعالى يصف حال الفزع بين الناس حيث يطلب كل منهم لنفسه فقط الخلاص والنجاة في هذا اليوم المخيف الذي لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، " يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم شأن يُغنيه " يود الكافر لو افتدى نفسه بأحب الناس إليه جميعاً النار فهلكوا فيها لينجوَ وحده من العذاب الشديد " يود

المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التي تؤيه ، ومن في الأرض جميعاً ، ثم يُنجيه " .

وقوله تعالى يصف الأمم بين يديه ساكتة لا يتكلم أحد منهم إلا بإذنه ولن يُقبل اعتذارُ من أساء في كفره واستكباره وإنكاره وجحوده ، إن ذلك اليوم الرهيب يومُ حسابٍ لا يومُ عمل " هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون " وتصورهم مبلسين خائفين ينظرون إلى النار – مصيرهم الخالد – من طرْف خفيّ ، نعوذ بالله من هذا المصير البئيس.

وقوله تعالى يصف جلال الموقف بين يديه سبحانه ، فالملائكة الكرام الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون يمثلون أمامه دون حركة أو قول ينتظرون أمره سبحانه خائفين من هذا اليوم العظيم وَجِلِين لا يتكلمون إلا بإذنه جل شأنه وعظُم سلطانُه " يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً "

وقوله تعالى في المؤمنين الموحّدين يكرمهم ، وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يهبهم الله نوراً يسعدون به في ظلمة ذلك اليوم المكفهِرّ يمضي معهم حيث ساروا، ويحاول المنافقون وأضرابهم أن يتابعوهم ليقتبسوا من أنوارهم ، فيُمنعون ، ويُفصل بينهم فيعيش أولئك في ظلمات النفاق والعصيان .. " يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك الفوز العظيم ، يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظُرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم ... "

ومتابعة لكلمة يوم مضافة إلى الفعل المضارع يرينا صور المستقبل بيّنة صافية تجعلنا نحيط بالموقف إحاطة واضحة لا لبس فيها .

2-إذ (التصويرية) التي تنقل المشهد الذي حدث في الماضي إلى الحاضر فإذا به أمامنا نراه ونسمعه ونعيشه وكأنه يحصل بيننا الآن يتبعه الفعل الماضي (جملة المضاف إليها) ... من ذلك :

قوله تعالى يصور لنا الحوار الذي دار بينه سبحانه وبين ملائكته في خلق أبينا آدم عليه السلام " وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها مَن يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك ؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون "

فقد رأوا – في رواية من قال إن خلقاً في الأرض كانوا قبل آدم - أن أولئك اقتتلوا وأفسدوا ، فأهلكهم الله وأن هذا المخلوق الجديد – آدم – قد يكون مثل سابقيه سوءاً وفساداً ، فتعجبوا أن يتكرر ذلك الأمر في الأرض بآدم وذرّيته .. فكان هذا الحوار...

وقوله تعالى يامر الملائكة أن يسجدوا لآدم سجود طاعة لله وتكريماً لآدم بتكريم الله له " ولقد كرّمنا بني آدم " فإذا بنا نرى بأعين قلوبنا الملائكة تسجد لأبينا بأمر الله وفضله " وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا .. " فما علينا إلا أن نحافظ على هذا التكريم بطاعة الله سبحانه والتزام أوامره والانتهاء عن نواهيه .

وقوله تعالى يعدد فضله على بني إسرائيل في نجاتهم من فرعون وقومه ، فأخرجهم من مصر إلى بلاد فلسطين المباركة ، وجعل في البحر نجاتهم وفيه هلاك فرعون وجنده ، فكان

البحر منجّياً ومهلكاً بآن واحد . ورأوا مصارعهم دون أن يكلفهم قتالهم كما أن الله تعالى أراد كرامتهم حين سمح بفضله أن يكونوا مع موسى عليه السلام إذ يكلمه ، فأشركوا قبل هذا التكريم واتخذوا العجل إلهاً ، بل إنهم طلبوا أن يروا ربهم جهاراً نهاراً فصعقهم الله تعالى عقوبة لتجرئهم على طلب ما ليس لهم ولا يستطيعونه ، وكان من فضل الله تعالى عليهم أن أنزل على موسى التوراة لتكون لبني إسرائيل نبراساً ....

وقد أخذتنا " إذْ والفعل الماضي بعدها إلى الماضي البعيد أو قرّبتْ هذا الماضي فتصورناه أمامنا بكل تفاصيله وصُوَرِه رأيَ العين :

" وإذ نجّيناكم من آل فرعون ، يسومونكم سوء العذاب .... "

" وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون "

" وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون "

" وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون "

" وإذ قال موسى لقومه : يا قوم ؛ إنكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا .. "

" وإذ قلتم ياموسى : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتكم الصاعقة ..."

ولو تابعنا إذ والفعل معها في آيات القرآن الكريم لوجدناها تربو على العشرات مصوّرة وموضحة ، تضع المنظر أمامنا بكل أبعاده الحركية والصوتية .

(وراء)

وردت كلمة / وراء/ بمشتقاتها في القرآن الكريم أربعاً وعشرين مرة ، فما المقصود بكلمة وراء؟

قال **ابن منظور في لسان العرب**:

وراء: (خَلفَ). قاله لبيد وابن السكِّيت. ولكنْ إذا كان مما تَمُرُّ عليه فهو (قُدّام) كذلك.قال تعالى: " مِن وَرائِه جَهَنَّمُ؛ أَي بين يديه. وقال الزجاج: ورَاءُ يكونُ لخَلْفٍ ولقُدّامٍ ومعناها ما تَوارَى عنك فاسْتَتَر. قال: وليس من الاضداد كما زَعَم بعضُ أَهل اللغة، وأَمّا أَمام فلا يكون إِلاَّ قُدَّامَ أَبداً. وقال تعالى: "وكان وَراءَهُم مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينةٍ غَصْباً." قال ابن عبَّاس، رضي الله عنهما :كان أَمامهم.وقال لبيد بهذا المعنى:

أَلَيْسَ وَرائي، إِنْ تَراخَتْ مَنِيَّتي لُزُومُ العصَا تُحْنَى عليها الأَصابِعُ

وقال الفرَّاءُ: لا يجوزُ أَن يقال لرجل ورَاءَكَ: هو بين يَدَيْكَ، ولا لرجل بينَ يدَيْكَ: هو وَراءَكَ، إِنما يجوز ذلك في المَواقِيتِ من اللَّيالي والأَيَّام والدَّهْرِ. تقول: وَراءَكَ بَرْدٌ شَدِيدٌ، وبين يديك بَرْد شديد، لأَنك أَنْتَ وَرَاءَه، فجاز لأَنه شيءٌ يأْتِي، فكأَنه إِذا لَحِقَك صار مِن وَرائِكَ، وكأَنه إِذا بَلَغْتَه كان بين يديك، فلذلك جاز الوَجْهانِ. من ذلك قوله، عز وجل: وكان وَرَاءَهُم مَلِكٌ، أَي أَمامَهمْ.

من معاني وراء في القرآن الكريم:

1- : الأمام:ولكنّ الأمامَ البعيد لا يُرى فكأنه وراءُ(وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً) وأقول: إن الحاكم أو الملك حين يطغى فيظلم ويسلب وينهب ،وكان عليه أن

يكون رحيماً بالرعية وأبا حنوناً وأخا شفيقاً ، هذا الحاكم لا يستحق أن يكون في الأمام، إنَّ ظلمَه يجعله خلف الناس جميعاً .

2-التخلي والاستبدال: (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدِّقٌ لما معهم نبذ فريق من الذين آوتوا الكتابَ كتابَ الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان..) البقرة 101 تخلّوا عنه وتمسكوا بما تمليه الشياطين عليهم.ومثاله كذلك قوله تعالى: (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لَتُبَيِّنُنَّهُ للناسولا تكتمونه ،فنبذوه وراء ظهورهم..)

3- والوراءُ ولَدُ الوَلَدِ،وفي التنزيل العزيز: ومِن وراءِ إِسْحقَ يَعْقُوبُ. قال الشعبي: الوَراءُ: ولَدُ الوَلَدِ.

4-ما عدا ذلك :((فمَنِ ابْتَغَى ورَاءَ ذلك قال ابن الأَعرابي في قوله، عز وجل: (بما وَراءَه وهو الحَقُّ.) أَي بما سِواه .وهو (الإسلام).

5-أو تدل على الحل بعد التحريم كقوله تعالى:(وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غيَ مسافحين) النساء 24، وقوله تعالى (فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون)المؤمنون 7،فحرم الزنا والاتصال المحرم

6-وقد تأتي بمعنى المكان نفسه ، وهذا أصل ما جاءت له:كقوله تعالى(فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم)النساء 102،

7-الموت :كقوله تعالى(وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً..) مريم /5/ يخاف إن مات أن تنقطع الدعوة إلى الله بعده فهو عليه السلام يريد ذرية صالحة تحمل عبء الدعوة بعده.

8-الإحاطة:(بل الذين كفروا في تكذيب ، والله من ورائهم محيط)وهي القدرة والإحكام وبسط السيطرة.

9-التهديد والتوبيخ والوعيد كقوله تعالى(من ورائهم جهنّم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً) الجاثية 10،وكذلك في قوله سبحانه(وأما مَن أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويَصلى سعيراً)الانشقاق10،

10- وقد تأتي بمعنى الغيب:(ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون)المؤمنون 100،وكقوله تعالى(وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب)الشورى51

11- وقد تأتي بمعنى التيئيس كقوله تعالى عن المنافقين يوم القيامة(قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً)الحديد 13. وليس لهم يوم القيامة نور ،لقد طمسوه في الحياة الدنيا .

12- وقد تأتي بمعنى الستر والحجاب في قوله سبحانه(وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهنَّ من وراء حجاب)الأحزاب 53.وهذه دعوة إلى الحياء والأدب وصون المرأة.

13- الرعونة والاستعجال غير المبرر:قال تعالى(إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون)الحجرات4،

14- وقد تأتي بمعنى فجاءة الموت السريعة (وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم)الأنعام 94.

ملاحظة

قال أَبو الهيثم: الوَرَاءُ، ممدود: الخَلْفُ، ويكون الأَمامَ. . وكذلك قوله سبحانه: (من وَرائِه جَهَنَّمْ؛) فهي بين يديه.قال اللحياني: وراءُ مُؤَنَّثة، وإِن ذُكِّرت جاز، قال سيبويه: وقالوا وَراءَكَ إِذا قلت انْظُرْ لِما خَلْفَكَ.

قال ساعِدةُ بن جُؤَيَّةَ:

حَتَّى يُقالَ وَراءَ الدَّارِ مُنْتَبِذاً قُمْ، لا أَبا لَكَ، سارَ النَّاسُ، فاحْتَزِمِ

قال الأَصمعي: قال ورَاءَ الدَّارِ لأَنه مُلْقىً، لا يُحْتاجُ إِليه، مُتَنَحٍّ مع النساءِ من الكِبَرِ والهَرَمِ،

من **معاني الفعل** (ورأ) الذي اشتُقَّ منه الظرفُ (وراء)

1-الدفع: تقول:وَرَأْتُ الرَّجلَ: دَفَعْتُه.

2-وَرَأَ زيدٌ من الطَّعام: امْتَلأَ.

3- والوَراءُ :الضَّخْمُ الغَلِيظُ الأَلواحِ، قاله الفارسي.

المحتويات

كلماتٍ في القرآن 1

مقدمة الكتاب 2

تفاعل وتفعّل 3

البشرى 10

هل أتاك ؟ 16

يسألونك 20

الذوق 25

(أُمّة) 29

العَرْض 35

الوفاة 41

البلاء 46

(سلك) ومشتقاتها 49

العدل 53

الضلال 58

(النظر) 63

(بلغ ومشتقاتها) 69

الظنّ 74

يوم ، إذ 79

(وراء) 83